أثر الخليل بن أحمد في سيبويه و(الكتاب)

إعـداد

دكتور/ ربيع شعبان السيد علي

أستاذ أصول اللغة المساعد ووكيل كلية اللغة العربية

بإيتاي البارود-جامعة الأزهر

١٤٤٦ هـ- ٢٠٢٤م

ض

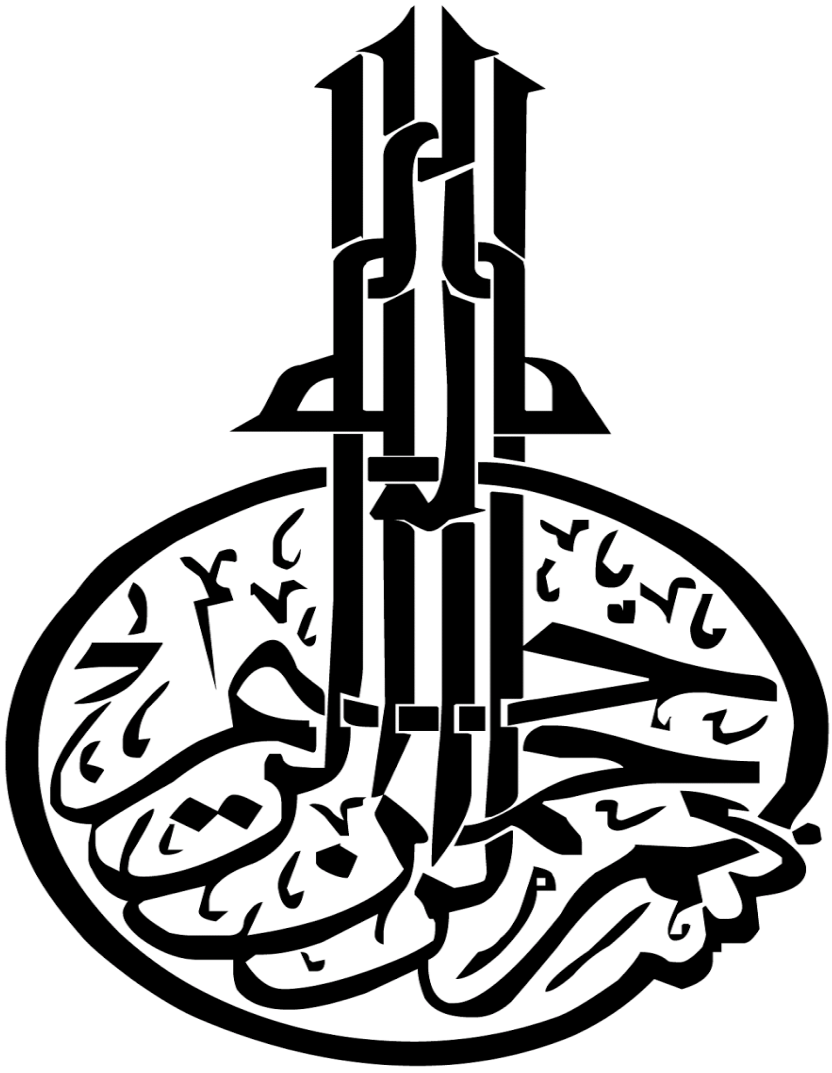

أثر الخليل بن أحمد في سيبويه و(الكتاب)

ربيع شعبان السيد علي
قسم أصول اللغة، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود (البحيرة) جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني :
Rabie shabn . 2034 @azhar. Edu.eg.

الملخص:

تهدُف هذه الدراسة إلىٰ تبيان أن الخليل بن أحمد الفراهيدي شيخ الصنعة في مجالي اللغة والنحو وغيرِهما قد أثر في سيبويه إمام النحاة وكتابه الذي قيل عنه بأنه قرآن النحو، وإن سيبويه قد تأثر بأستاذه الخليل في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، وقد أجمع العلماء علىٰ أن الخليل كان أعلم الناس باللغة في زمانه، وكان حَفِيًّا بتلميذه النجيب سيبويه الذي لزمه وتعلم منه النحو والصرف والعروض والقراءات والأصوات وغيرها حتىٰ برز عالمًا علىٰ الرغم من صغر سنه.

ويتساءل هذا البحث عن أثر الخليل وتأثيره في سيبويه وكتابه، وهل لأستاذية الخليل أثر في سيبويه وكتابه؟ كما يتساءل البحث عن السبب في قلة عدد تلاميذ سيبويه، ومن الذي أشار علىٰ سيبويه بتأليف هذا الكتاب؟ كما يتساءل البحث عن السبب في كثرة نقل سيبويه عن الخليل وأن جملة ما روي عنه في الكتاب (٥٢٢) خمسمائة واثنتان وعشرون مرة، وهذا قدر لم يرد مثله ولا قريب منه عن أحد من أساتذته، كما رصد البحث بشكل ملحوظ بروز شخصية سيبويه علىٰ الرغم من كثرة هذه النقول؛ ويرجع السبب لكثرة هذه النقول إلىٰ أن الخليل لم يرض أن يؤلف في النحو؛ لأنه قد تقدم إلىٰ القول عليه والتأليف فيه، واكتفىٰ بما أوحىٰ إلىٰ تلميذه من علمه ونتاج فكره، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه كتابه.

وقد اتبعتُ في هذا البحث المنهج الوصفي، وقد قسمت هذه الأوراق إلىٰ قسمين: القسم الأول: لدراسة أثر الخليل في سيبويه و(الكتاب) بعامة، والقسم الثاني:

أثره من الناحية اللغوية واهتمامه في الكتاب بالدراسة الصوتية وغيرها مما يوضح أثر (الكتاب) في العلوم كلها.

الكلمات المفتاحية: الخليل – سيبويه – الكتاب – الدراسة الصوتية – الجوانب اللغوية – الإدغام – مخارج الأصوات – صفات الأصوات.

The impact of Al-Khalil bin Ahmed on Sibawayh and the book

Rabie Shaaban Al-Sayed Ali
Department of Linguistics - Faculty of Arabic Language, Itay Al-Baroud (Beheira), Al-Azhar University
Email: Rabie shabn.2034@azhar.Edu.eg.

Abstract

This study aims to show that Al-Khalil bin Ahmed Al-Farahidi, the sheikh of craftsmanship in the fields of grammar, language, and others, influenced Sibawayh, the imam of grammarians, and his book, which was said to be the Qur'an of grammar, and that Sibawayh was influenced by his teacher, Al-Khalil, in extracting issues of grammar and correcting analogy in it. Scholars have unanimously agreed that Al-Khalil He was the most knowledgeable of people in the language in his time, and he was close to his student, the noble Sibawayh, so he stayed with him and learned from him grammar, morphology, prosody, recitations, sounds, etc., until he graduated as a scholar despite his young age. This research asks about the impact of Al-Khalil and his influence on Sibawayh and his book, and did Al-Khalil's professorship have an impact on Sibawayh and his book? The research also asked about the reason for the small number of Sibawayh's students, and who advised Sibawayh to write this book? The research also questions the reason for the large number of quotes from Sibawayh from Al-Khalil, and that the total of what was narrated about him in the book (522) is five hundred and twenty-two times, and this is an amount the likes of which was not reported nor was close to it from any of his teachers. The research also talked about the emergence of Sibawayh's personality despite the large number of these sayings. The reason for the large number of these sayings is that Al-Khalil did not agree to write about grammar because he had advanced to saying and

writing about it, and he was content with what was revealed to his student of his knowledge and the product of his thought, so Sibawayh carried that from him. He imitated it and wrote his book about it.

In this research, I followed the descriptive approach, and these papers were divided into two parts: the first section: to study the impact of Al-Khalil in Sibawayh and the book in general, and the second section: its impact from a linguistic standpoint and its interest in the book in phonetic studies and other things that clarify the book's impact on all sciences.

Keywords: Al-Khalil - Sibawayh - The book - Phonetic study - The linguistic aspect - Assimilation - Exits of sounds - Characteristics of sounds.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

وبعد؛

فـ "أبو بِشْرٍ عمرو بن عثمان بن قَنْبَر المعروف بسيبويه - التي تعني بالفارسية رائحة التفاح - المولودُ سنة ١٤٠ هـ أو قبلها بقليل، والمتوفىٰ سنة ١٨٠ هـ علىٰ الأرجح[١].

قال الزُّبَيْدِي: "أخذ عن الخليل"[٢]، وقال السيرافي: "وأخذ النحو عن الخليل – وهو أستاذه – وعن يونس وعيسىٰ بن عُمَرَ وغيرِهم، وأخذ أيضًا اللغاتِ عن أبي الخطاب الأخفش (الكبير) وغيره وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلىٰ مثله أحد ولم يَلْحَقْ بِهِ مَنْ بَعْدَه"[٣].

وكفىٰ بالخليل له أستاذًا ومعلمًا ومرشدًا وهاديًا ومُحِبًّا، وكان الخليل "الغايةَ في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه"[٤].

فقد أجمعوا علىٰ أن الخليل كان أعلم الناس باللغة في زمانه، وكان زاهدًا، ورعًا، وكان سيد الأدباء في العلم والزهد، وكان حفيًا بتلميذه النجيب سيبويه، فلزمه

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٦٣، تح/ د محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، الأولىٰ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ومراتب النحويين لأبي الطيب ص ٦٥، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط / نهضة مصر ١٩٥٥م، وطبقات النحويين واللغويين للزُّبَيْدِي ص ٦٦، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الثانية.

(٢) طبقات النحويين ص ٦٦.

(٣) أخبار النحويين ص ٦٤.

(٤) السابق ص ٥٤.

سيبويه وتعلم منه النحو والصرف والعَرُوض والقراءاتِ والأصواتَ وغيرَها، حتىٰ تخرج عالمًا علىٰ الرغم من صغر سنه، وكان الدكتور/ عبدالله ربيع محمود – رحمه الله– في محاضراته كما حُكىٰ لي يقول: لعل الخليل هو الذي أشار علىٰ سيبويه أن يؤلف (الكتاب)؛ ولذلك ورد اسمه والإشارة إليه في (الكتاب) كثيرًا بعبارات مختلفة مثل: "وقال لي الخليل"، "وزعم الخليل"، "وسألته"، "وقال" إلىٰ غير ذلك، إذْ في الجدول الذي يبين عدد مرات الأخذ والرواية عن العلماء الذي أحصاه الأستاذ علي النجدي ناصف عن سيبويه ورد أعلاها "الخليل بن أحمد" ٥٢٢[١] "اثنتين وعشرين وخمسمائة.

وهذا البحث لبيان أثر الخليل وتأثيره في سيبويه وكتابه، وبعد معايشة للنصوص ودراسة للكتاب يتضح أن أستاذية الخليل كان لها أثرها؛ إذْ لقيت تربةً خصبة أعرقت وأورقت وأثمرت وأينعت، فكان كتاب سيبويه الذي لم يأت كتاب كامل قبله بهذه السَّعَة، ولم يلحق به أحد من بعده، وبه اكتمل النحو حتىٰ قالوا: من أراد أن يؤلف في النحو بعد سيبويه فليستحي.

كما حَفَل الكتاب بمباحث لغوية كثيرة تتعلق بالمعاني والأصوات وفقه اللغة واللهجات العربية والقراءات القرآنية، ونال ثناء العلماء عليه في الشرق والغرب، كما أثنىٰ عليه المستشرقون، وكتب (شاده) الألمانِيُّ رسالته عن "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا"[٢].

---

(١) سيبويه إمام النحاة ص ١٠٢، نشر عالم الكتب بمصر، سنة ١٩٧٩م.

(٢) انظر: الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص ١١٢، وما بعدها، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: الرابعة ١٩٧١م.

يقول د. عبد الصبور شاهين: "ولا ريب أن إدراك صفات الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط والإطباق والانفتاح والانحراف... إلخ كان اتجاهًا أصيلاً عند سيبويه يميزه عن أستاذه الخليل الذي لا نجد في كتابه (العين) سوىٰ تحديد المخارج وترتيب الحروف، دون أن يذكر صفة من صفاتها التي جاءت في كتاب سيبويه"(١).

هذا، والبحث يقع في قسمين:

القسم الأول: لدراسة أثر الخليل في سيبويه و(الكتاب) بعامة، ويتناول الخليلَ ومكانته وطلب سيبويه العلمَ علىٰ يده وعلىٰ كبار الشيوخ والأئمة، وكتابه وانتفاعه بعلم الخليل، وجمع ما تفرق من أقوال مَنْس تقدمه، وبروز شخصيته، وطبعات الكتاب واهتمام المستشرقين والعرب بهذا الدستور الذي هو قرأن النحو، واهتمامه بالأصوات لحاجة الصرفي والنحوي إلىٰ هذا العلم واشتماله علىٰ علوم كثيرة، فهو أصل من أصول العلوم العربية والإسلامية.

وجاء القسم الثاني تحت عنوان: (أثر الخليل في سيبويه) ووضح سبب طلبه للنحو واللغة بعد تعنيف شيخه (حمّاد) له ولزومِه الخليلَ بنَ أحمد وعقيدَته السُّنِّيَّة وعقيدَة شيخه الخليل، وعَقْدَ موازنة بين (الكتاب) وكتاب (العين)، وسبَبَ خلوِّ الكتاب من مقدمة، ومنهجَ الكتاب في عرض قضايا النحو ومسائله، وقضية المنهج، وتوافقَه مع منهج علم اللغة النَّصِّي في السَّبْك والحَبْك، واقتباسَ الإمام عبد القاهر منه، وقوله بأن النَّظْم "توخىٰ معاني النحو" واهتمامَه في الكتاب بالدراسة الصوتية مما لفت أنظار المستشرقين، ودراسته للقراءات وانجازه في هذا الوقت

(١) في التطور اللغوي ص ٢١٧، مؤسسة الرسالة، ط الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

المبكر لدراسة صفات الأصوات مما لا يختلف مع علم الأصوات الحديث إلا في تطور بعض الأصوات لسبب أو لآخر، وتفوقه علىٰ ما ورَدَنا عن الخليل في ذلك، وتأثرَ ابنِ جني وغيره به، وعددَ مرات ورود آراء سيبويه في "سر صناعة الإعراب" و"الخصائص"، واشتمالَ الكتاب علىٰ مادة غزيرة من اللهجات العربية، وانتفاعَ ابن جني بالسطر من كلامه وكلام الخليل وإقامة أبواب عليها، والقراءات في الكتاب ومنهج سيبويه في توجيهها وتخريجه واستفادة العلماء بعده بمنهجه، مما يوضح أثر الكتاب في العلوم كافة.

وفي هذه الدراسة يتضح أن حركة اللغة في التاريخ كيف تنامت ونضجت يعدلها في نظر العلماء تمكين اللغة في المستقبل من أن تجدد شبابها وتُنَمِّيَ ثروتَها وتستكملَ عُدَّتَهَا للتعبير عن حضارة العربي، وأنها لا تبدأ من فراغ بل لها رصيدها ومؤلفات علمائها، وأن نحافظ علىٰ سمة الأصالة وإنجاز أسلافنا، وأن تهزنا صحوة لغوية جديدة للنهوض بها.

ونسأل الله أن يسدد خطانا ويلهمنا التوفيق والسداد
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القسم الأول: أثر الخليل في سيبويه و(الكتاب) بعامة

ذكرت كتب التراجم أن الخليل بن أحمد الفراهيدي (المولود سنة ١٠٠هـ والمتوفى سنة (١٧٠ أو ١٧٥هـ) كان أعلم الناس باللغة في وقته، وكان سيد الأدباء في علمه وزهده[١]، وأن سيبويه قد لزمه يأخذ عنه علوم اللغة والنحو، وكان أبرع تلاميذه في النحو[٢]، وكان الخليل يفسح له صدره، ويرى فيه الطالب الذي لا يضن عليه، وكان يحبه حبًّا شديدًا، وقال ابن النَّطَّاح: كنت عند الخليل ابن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل: "مرحبًا بزائر لا يُمَلُّ" قال أبو عمرو المخزومي: ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه"[٣].

والخليل من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء (توفي حوالي ١٥٤هـ)[٤]، وقد أخذ سيبويه من علمه في اللغة والنحو والقراءات والأدب والأصوات، يقول الأستاذ/ عبدالسلام هارون: "ومع ملازمة سيبويه للخليل كان لا يبرح يرتاد كبار الشيوخ والأئمة يستكمل علمه منهم"[٥].

وقد ذكر الأستاذ هارون ألمع شيوخه ومنهم:

---

(١)معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤/ ٤٩٩، دارالكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٣/ ١٦٤، دارالفكرالعربي، مصر، وسيرأعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤٦٧، تح، محمد عبادي، مكتبة الصفا، مصر١٤٢٤هـ، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، المجلد الثامن ١/ ٨٠، ط السعودية، أخبارالنحويين البصريين للسيرافي ص ٥٥، دارالاعتصام، والمعارف لابن قتيبة ص ٥٤١، تح/ د ثروت عكاشة، ط:الرابعة دار المعارف.

(٢) السابق، ومقدمة هارون الكتاب ١/ ١٠.

(٣) السابق، وأنباه الرواة ١/ ٣٤١.

(٤) نفسه ٤/ ٢٥.

(٥) هارون: تقديم تحقيق الكتاب ١/ ٨.

- **حمّاد بنُ سَلَمَةَ بن دينار البصري**، وكان عالمًا بالنحو وهو أستاذ يونسَ بنِ حبيب، وحماد هذا هو الذي دفع بسيبويه إلىٰ إتقان النحو بسبب تخطئته إياه وهو يكتب الحديث توفي سنة ١٦٧هـ(١).

- **الأخفش الأكبر عبدالحميد بن عبدالمجيد أبو الخطاب**، كان قد لقي الأعراب وأخذ عنهم وأخذ عنه سيبويه اللغة وشيئًا من النحو.

- **يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري القارئ**، وكان أعلم الناس في زمانه بالقراءات والعربية، وله قراءة مشهورة هي إحدىٰ القراءات العشر، توفي سنة ٢٠٥هـ(٢).

- **عيسى بن عمر الثقفي صاحب كتاب "الجامع" و "الإكمال"**(٣)، وتوفي سنة ١٤٩هـ، وكانت له مذاهب وافية تَفَرَّد بها، وكانت حلقته بالبصرة يقصده فيها طلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية(٤).

- **وأبو زيد الأنصاري** أخذ سيبويه عنه اللغة، وقد ذكروا عن سيبويه أنه إذا قال: أَخْبَرَنِي مَنْ أَثِقُ بعربيته فإنما يريد أبا زيد الأنصاري(٥)، توفي بالبصرة سنة ٢١٥هـ(٦).

---

(١) انظر: في ترجمته معجم الأدباء ١٠/ ٢٥٤، وتهذيب التهذيب ٣/ ١١، والمعارف ص ٥٠٣.

(٢) بغية الوعاة ص ٤١٨، والمعارف ص ٥٣٢، ط: الرابعة دارالمعارف، ومقدمة هارون ١/ ٩.

(٣) بغية الوعاة ص ٣٧٠، والفهرست لابن النديم ص ٦٢، ومقدمة هارون ١/ ١٠، وانباه الرواة ٢/ ٣٧٤، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٤٠-٤٥، والمعارف ص ٥٤٠.

(٤) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ٦٠، والمعارف ص ٥٣١، ومقدمة هارون ١/ ١١، وسيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف ص ٩٥.

(٥) الأستاذ عبدالسلام هارون نقلاً عن كتب التراجم ١/ ١٢، والمعارف ص ٥٤٤، وانظر: تهذيب اللغة ١/ ١٢، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣١٥.

(٦) مراتب النحويين ص ٤٢، ومعجم الأدباء ١١/ ٢١٢، وبغية الوعاة ص ٢٥٤.

- **وذكروا من شيوخه هارون بن موسى النحوي**، وكان من علماء القراءات[١]، ولم يتسن لسيبويه لقاء أبي عمرو بن العلاء والأخذُ عنه، بل أخذ بطريق الرواية عمن رَوَوْا عنه[٢].

فكما أخذ سيبويه عن الخليل أخذ عن هؤلاء الأعلام وغيرِهم، وكان حريصًا علىٰ العلم، وبرع في النحو حتىٰ بَزَّ أترابه فيه، فاحتفىٰ به علماء البصرة الذين صار إمامهم غير مدافع "وأخرج للناس كتابه الذي أكسبه فخار الأبد، فإنه شاهدُ صدقٍ علىٰ علو كعبه في هذا الفن"[٣].

زملاؤه:

وكان لسيبويه زملاء أخذوا العلم معه عن الخليل، وبرز منهم أربعة وهم: سيبويه وقد غلب عليه النحو، ومُؤَرَّج السَّدُوسِي وقد غلب عليه الشعر واللغة، وعلي بن نصر الجَهْضَمِي، وقد غلب عليه الحديث، والنَّضْر بن شُمَيْل، وقد غلبت عليه اللغة[٤].

فأما مؤرج فهو أبو فَيْدٍ مُؤَرَّجُ بن عمرو السَّدُوسي، أخذ عن أبي زيد الأنصاري، وسمع الحديث من أبي عمرو بن العلاء وغيره، وصحب الخليل فكان من أكابر

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/ ٣، وسيبويه علي النجدي ناصف ص ٩٨.

(٢) سيبويه إمام النحاة للاستاذ علي النجدي ناصف ص ٩٩، ومقدمة تحقيق هارون ١/ ١٣.

(٣) نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوي ص ٨٠، ط: دار المعارف، مصر، الخامسة سنة ١٩٧٣م.

(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٦٤، تح د/ محمد إبراهيم البنا، ط ١٩٨٥م، وسيبويه للأستاذ علي النجدي ناصف ص ١٠٢، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٧٥، ط دار المعارف، ط الثانية.

أصحابه، وله من الكتب - كما ورد في كتب التراجم - غريب القرآن، والأنواء، والمعاني وغيرها، ومات سنة ١٧٤هـ، وقيل سنة ١٩٥هـ(١).

- وأما علي بن نصر الجَهْضَمِيُّ فكان محدثًا ثقة، روىٰ له الجماعة، ومات سنة ١٨٠هـ(٢).

- وأما النضر فهو أبو الحسن النضر بن شميل أخذ عن الخليل وسمع من فصحاء العرب، ويقال إنه أقام بالبادية أربعين سنة، وكان - رحمه الله - إمامًا في اللغة وعَلَمًا في رواية الأخبار والسُّنَن وله من الكتب كتاب السلاح، وكتاب المدخل إلىٰ كتاب العين وغيرُهما، ومات سنة ٢٠٣هـ أو ٢٠٤هـ(٣).

تلاميذه

كان لسيبويه تلاميذ أبرزهم الأخفش الأوسط وقُطْرُب.

١- **فأما الأخفش الأوسط**: فأبو الحسن سعيد بن مَسْعَدَةَ، أخذ عن شيوخ سيبويه، وكان فيما يقال أسنَّ منه ثم أخذ عنه، وكان أحذق تلاميذه وأحفظَهم لعلمه حتىٰ كان الطريقَ إلىٰ الكتاب، قرأه عليه بعض العلماء، وعنهم ذاع في الناس وتجول في الأقطار، وتوفي سنة ٢١٥هـ وقال: "كان سيبويه إذا وضع شيئًا من كتابه عرضه عليَّ، وهو يرىٰ أني أعلم به منه، وكان أعلم به مني، وأنا اليوم أعلم منه(٤).

---

(١) راجع نزهة الألباء ١٧٩- ١٨٤، وبغية الوعاة ص ٤٠٠، والفهرست ص ٧١، وطبقات النحويين واللغويين ص ٧٥، والمعارف ص ٥٤٣.

(٢) بغية الوعاة ص ٣٥٨، وطبقات النحويين واللغويين ص ٧٥.

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٥٥-٦١، ط الأولىٰ دار المعارف.

(٤) مراتب النحويين لأبي الطيب ص ٦٩، وإنباه الرواة ٢/ ٣٥٠، وأخبار النحويين البصريين ص ٦٦، وطبقات الزبيدي ص ٦٧-٧٢.

ومن كتبه: المقاييس في النحو، والاشتقاق، والأصوات، والعروض، والقوافي، ومات- رحمه الله- بعد سنة ٢٠٧هـ بقليل[١].

وقول الأخفش يُظْهِر تواضعَ سيبويه وحرصَه علىٰ المشاورة في العلم، ويدلنا - كذلك - أن الأخفش شهد مولد (الكتاب) ونشأتَه[٢].

٢- **قطرب أبو محمد بن المستنير البصري**، كان ملازمًا لسيبويه، وكان يَدْلِجُ إليه، فإذا خرج رآه علىٰ بابه فقال: "ما أنت إلا قُطْرُب ليلٍ، والقطرب: دُوَيْبَة لا تستريح نهارها سعيًا، وقد أخذ قطرب عن عيسىٰ بن عمر النحوي، وتوفي سنة ٢٠٦هـ، وكان ثقة فيما يحكيه، وله من الكتب: معاني القرآن، وكتاب النوادر، وكتاب العلل في النحو، وكتاب إعراب القرآن، والأضداد، وغيرها[٣].

-**وعثر الأستاذ عبدالسلام هارون على تلميذ آخر هو الناشي** قال أبو الطيب: "وكان ممن أخذ عن سيبويه والأخفش رجل يعرف بالناشي، ووضع كتبًا في النحو قبل أن يستتمها وتؤخذ عنه، فأخبرنا محمد بن يحيىٰ قال: سمعت محمد بن يزيد يقول: لو خرج علم الناشي إلىٰ الناس لما تقدمه أحد"[٤].

---

(١) راجع أخبار النحويين ص ٥٠، ونزهة الألباء ص ١٨٤، وبغية الوعاة ص ٢٥٨، وكتاب سيبويه للاستاذ/ علي النجدي ناصف ص ١٠٤.

(٢) انظر: تقديم الأستاذ هارون للكتاب ١/ ١٥.

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٩٩-١٠٠، والفهرست ص ٧٨، وبغية الوعاة ص ١٠٤، وتاريخ التراث لفؤاد سزكين مج ٨ ص ١/ ٩٨، ط/ السعودية.

(٤) مقدمة تحقيق الكتاب ١/ ١٦، وانظر مراتب النحويين ص ٨٥، ورسالة (شواهد الشعر في كتاب سيبويه) للدكتور/ خالد عبدالكريم، جمعه ص ٣٣، رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٠م، ط/ الكويت، ط: الأولىٰ ١٤٠٠هـ.

وزاد أحد الباحثين[١] تلميذًا رابعًا هو الزيادي: أبو اسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي كان نحويًا لغويًا راوية، قرأ كتاب سيبويه علىٰ سيبويه ولم يتمه، وروىٰ عن الأصمعي وأبي عبيدة ونظرائهما وكان شاعرًا، توفي سنة تسع وأربعين ومائتين (٢٤٩هـ)[٢].

ولكن ما السبب في قلة عدد تلاميذ سيبويه؟

أرجع الأستاذ/ عبدالسلام هارون ذلك إلىٰ أن سيبويه كانت في لسانه حُبْسَة، أورد الزَّبيدي في طبقاته قال أحمد بن معاوية بن بكر العُلَيْمِي: ذُكِر سيبويه النحوي عند أبي فقال: عمرو بن عثمان قد رأيته وكان حَدَث السِّن. كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت مَنْ حمل عن الخليل بن أحمد، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو وكانت في لسانه حُبْسَة ونظرت في كتابه فعِلْمُهُ أبلغ من لسانه[٣].

ويرجع أحد الباحثين قلة عدد التلاميذ الذين يوازون شهرته ومكانته إلىٰ أنه توفي شابًا، كما أنه قضىٰ السنوات الأخيرةَ من حياته في شيراز"[٤].

---

(١) هو الدكتور / خالد عبدالكريم جمعة في رسالته " شواهد الشعر في كتاب سيبويه " ص ٣٣.

(٢) معجم الأدباء ١/ ١٠٠، دارالكتب العلمية، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٤١٤، تح/ محمد أبوالفضل، القاهرة ١٩٦٤م.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ص ٦٦، ٦٧، دارالمعارف ط: الثانية.

(٤) شواهد الشعر في كتاب سيبويه ص ٣٢.

وذكر الأستاذ هارون أن الفراء كان يقول في شأن سيبويه: "فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية له: هات ذيك الماء من ذاك الجرة، فخرجت من عنده فلم أعد إليه"(١).

ومثل هذه الرواية – في تقديري – غير مقبولة؛ لأن الفراء كوفي غَالَوْا في تعظيمه ومكانته، وأنه لولاه لضاعت العربية، وسيبويه بصري، ويدخل هذا – في رأيي – في كلام الأقران، وهو لا يقدح كما قال أهل العلم، وكتاب سيبويه شاهد حي علىٰ مر الزمان أن مؤلفه كان علىٰ علم باللغة وتراكيبها كبير، ولكن الأمر أقصاه – فيما نظن– كما وجدنا بعض أساتذتنا يقول: له في المحاضرة وليس له في التأليف، وبعضهم له في التأليف وغير مقبول في المحاضرة.وهناك من جمع الله له الحسنيين.

يقول الأستاذ هارون: "ولعل تلك الحُبْسَة علىٰ ما يبدو من مبالغة في تصويرها هي التي دفعته إلىٰ التأليف وتنحت به عن مقام الأستاذية الواسعة إلىٰ مقام التأليف البارع المقتدر، الذي يجانبه فضول القول وفضول الفكر"(٢).

ولعل ذلك أيضًا هو السبب في إخفاقه في المناظرة في المسألة الزُّنْبُورِيَّة التي أجاد الأستاذ علي النجدي ناصف عَرْضَها وملابساتها بما لا يدع مجالاً لقائل(٣).

(١) مقدمة تحقيق الكتاب ١/ ١٦ وذكر أن هذه الرواية في معجم الأدباء ١/ ١٣٨، وقد بحثت عنها فلم أجدها، ولم أجدها في طبقات النحويين واللغويين للزبيدي / ترجمة الفراء من ص ١٣١-١٣٣، ولا في ترجمة سيبويه من ص ٦٦-٧٢.

(٢) عبدالسلام هارون: تحقيق الكتاب، مقدمة ١/ ١٦.

(٣) انظر: السابق ١/ ١٧ وسيبويه للأستاذ علي النجدي ناصف، ص ١٠٤ إلىٰ ١١٦.

ولعله أيضًا هو السبب في تلك الواقعة التي حدثت له مع الأصمعي قال العباس بن الفرج: سمعت عمرو بن مرزوق يقول: رأيت سيبويه والأصمعي يتناظران، قال: يقول يونس الحق مع سيبويه، وقد غلب ذا – يعني الأصمعي – بلسانه(١).

ومهما يكن من أمر فإن سيبويه كان أثبت مَنْ حمل عن الخليل بن أحمد علمَه، وكان للخليل فيه فِرَاسةٌ أنه من أنجبِ تلاميذه إن لم يكن أنجبهم، كان شابًا جميلاً نظيفًا، قد تعلق من كل علم بسبب وضرب فيه بسهم، مع حداثة سنه وبراعته في النحو(٢).

وأن ما حدث له كان من باب الغَيْرَة، قال ثعلب والمبرد: "لما ورد سيبويه العراق شَقَّ أمرُهُ علىٰ الكسائي"(٣).

وذكروا أن كتاب سيبويه وجد بعضه تحت وسادة الفراء التي كان يجلس عليها(٤).

كتاب سيبويه

حُكِيَ لي أن الدكتور/ عبدالله ربيع محمود – رحمه الله تعالىٰ – كان يذكر في محاضراته أن علم الخليل كان أكثر من وقته، فقد مات وهو يفكر في طريقة للجارية تيسر لها التعاملَ مع البقال لئلا يخدعها، ودخل المسجد وهو مُسْتَغرق في التفكير

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٦٩، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: الثانية.

(٢) السابق ص ٦٧.

(٣) السابق ص ٦٨.

(٤) نفسه ص ٧١-٧٢.

فصدم بسارية في المسجد وخر مغشيا عليه[١]، وأن الخليل لعله هو الذي أشار علىٰ تلميذه بتأليف هذا الكتاب كما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك. ومعلوم أن الخليل "كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه"[٢].

ويحكىٰ نصر بن علي بن نصر الجَهْضَمِيُّ المتوفي سنة ٢٥٠هـ عن أبيه الذي كان زميل سيبويه في التلمذة علىٰ الخليل بن أحمد المتوفي سنة ١٨٧هـ قولَه: "قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه: تعال حتىٰ نتعاون علىٰ إحياء علم الخليل"[٣].

ويقول الأستاذ هارون أيضًا وهو يتحدث عن مادة الكتاب: "ولا ريب أيضًا أن سيبويه قد انتفع بعلم الخليل انتفاعًا ظاهرًا"[٤].

وقد جمع سيبويه في كتابه ما تفرق من أقوال مَنْ تقدمه من العلماء كأبي الخطاب الأخفش والخليل ويونس وأبي زيد وعيسىٰ بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم في علمي النحو والصرف، إذ كان النحو في ذلك الحين يطلق عليهما واسمُه يَعَمُّهما "وأكثرهم نقلاً عنه الخليل الذي كان لا يمل لقاءه وأنابه في رواية الفن عنه، فكان

(١) انظر: قصة عبقري، للأستاذ/ يوسف العُشّ وقال عَقِبَها: وكان يجب أن يكتب علىٰ هذه السارية: هنا سقط الفكر ورقد الإبداع.

(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٥٤، وطبقات النحويين واللغويين ص ٤٧-٥١، وتاريخ التراث العربي مج ٨ ص ١/ ٨٠-٨١.

(٣) تقديم الأستاذ هارون تحقيق كتاب سيبويه ١/ ٢٤.

(٤) السابق.

كتاب سيبويه سجلاً لآراء الخليل في النحو؛ ولذا كثيرًا ما يقول فيه: سألت الخليل وذلك مستفيض في (الكتاب)، هكذا يقول العلامة الشيخ محمد الطنطاوي(١).

وقال أبو الطيب اللغوي ونقله عنه الأستاذ هارون – عن سيبويه -: "وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه الناس (قرآنَ النحو)، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل"(٢).

وكانت صلة سيبويه بالخليل قائمة علىٰ الحب الخالص والإجلال المتبادل، وكان سيبويه إذا روىٰ عن الخليل وبدا له أن يبدي رأيا بعد رأيه قال: وقال غيره ولم يصرح باسمه إجلالاً لشيخه أن يذكر اسمه مع اسمه في مجال الرأي وحديث المعرفة، وأكثر الرواية عنه في الكتاب، وكلما قال سيبويه: "وسألته" أو "قال" – من غير أن يذكر القائل – فإنما يعنيه"(٣).

قال السيرافي: "والخليل أستاذ سيبويه، وعامةُ الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل"(٤).

ومن أمثلة النقل عنه: "وسألتُ الخليل رحمه الله عن: ما أحسنَ وجوهَهما؟ فقال: لأن الاثنين جميعٌ، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا"(٥).

---

(١) نشأة النحو، ص ٩-٨٠-٨١ دار المعارف بمصر، وقد طبع الكتاب خمس طبعات من سنة ١٩٣٨م إلىٰ سنة ١٩٧٣، وكان مرجع الجميع في الجامعات العربية كلها في مصر والدولِ العربية.

(٢) مراتب النحويين ص ٦٥، ومقدمة تحقيق الكتاب ١/ ٢١.

(٣) سيبويه إمام النحاة الأستاذ علي النجدي ناصف ص ٩١-٩٢.

(٤) أخبار النحويين البصريين ص٥٦.

(٥) الكتاب ٢/ ٤٨.

وقولُهُ: "وأما قول الأخطل:

وَلَقَــدْ أَبِيــتُ مِــنَ الْفَتَــاةِ بِمَنْــزِلٍ فَأَبِيــــتُ لا حَــــرِجٌ ولا مَحْــــرُومُ

فزعم الخليل - رحمه الله - أن هذا ليس علىٰ إضمار (أنا)، ولو جاز هذا علىٰ إضمار (أنا) لجاز: كان عبد الله لا مسلمٌ ولا صالح علىٰ إضمار هو"[1].

وقوله: "وسألته عن الإضافة إلىٰ (عدو) فقال:(عدوي)، والمراد النسبة إلىٰ (عدو)"[2].

وجملة ما روي عنه في الكتاب ٥٢٢ خمسمائة واثنتان وعشرون مرة وهو قدر لم يَرِدْ مثلُهُ ولا قريبٌ منه عن أحد من أساتذته.

بروز شخصيته:

مما لا شك فيه أن سيبويه قد انتفع بعلم الخليل كما انتفع بعلم شيوخه الذين سبق ذكرهم، ولا ريب - كذلك - أنه أفاد ممن سبقه من أئمة النحو الذين أَلَّفوا فيه أو أُثِرَتْ عنهم رواية فيه، ولذلك قال الأستاذ عبدالسلام هارون: "فنحن لا نَعْجَب إذن حين نجد هذا النص الذي أورده ابن النديم في الفهرست ص٧٦: قرأت بخط أبي العباس ثعلب: اجتمع علىٰ صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا منهم سيبويه، والأصول والمسائل للخليل".

قال الأستاذ هارون: "وليس يعني هذا النص إلا أن سيبويه انتفع بجهود النحويين قبله الذين بلغ تعدادهم هذا القدر، وهذا النص الذي قد يشعر بتنقص

(١) الكتاب ٢/ ٨٤، ٨٥.

(٢) السابق ٣/ ٣٤٥.

سيبويه إنما يعبر عن حقيقة علمية وهي أن كتاب سيبويه إنما هو لقاح جهود النحاة الذين سبقوه"[١].

بل هذا يدل علىٰ خصوبة فكره ورجاحة عقله واستفادته من شيوخه مما كان له أثره في إثراء النحو والوصول بالأفكار القليلة إلىٰ تلك الأبواب والفصول العظيمة التي بهرت العلماء قديمًا وحديثًا، وكان لسيبويه شخصيته العلمية ونجابته التي رآها فيه الخليل، وأثبتت حسن ظنه فيه، فكانت أمامه الآراء وأقوال العلماء المختلفة فكان يحكيها ويوازن بينها ثم يحكم بالترجيح، ففي باب تحقير بنات الياء والواو إلخ عند الكلام علىٰ تصغير (أحوي) قال: "وأما عيسىٰ فكان يقول: (أُحي) ويَصْرِف. وهذا خطأ... وأما أبو عمرو فكان يقول: (أحيٍّ).. وأما يونس فيقول: هذا (أُحيٌّ) كما ترىٰ وهو القياس والصواب"[٢].

وفي باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات قال: "وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال: أختار يا قاضي، لأنه ليس بمنون، كما أختار هذا القاضي. وأما يونس فقال: يا قاضٍ. وقول يونس أقوىٰ"[٣].

وقد ضم سيبويه إلىٰ أقوال هؤلاء العلماء ما استخرجه بنفسه من القواعد اعتمادًا علىٰ سماعه من العرب الخلص قال: "وسمعنا العربَ الفصحاءَ يقولون: انطلقتُ الصَّيفَ"[٤] وقال: "وسمعنا بعضَ العرب الموثوقَ به، يقال له: كيف أَصبحتَ؟

---

(١) هارون، مقدمة تحقيق الكتاب ١/ ٢٤، وانظر في ذلك:سيبويه إمام النحاة للاستاذ/ علي النجدي ص ١٨٥ وما بعدها.

(٢) الكتاب ٣/ ٤٧٢.

(٣) السابق ٤/ ١٨٤.

(٤) نفسه ١/ ٢١٩.

فيقولُ: حمدُ اللهِ وثناءٌ عليه"[١]، وقال: "إن هذا البيت أَنْشَدَنَاهُ أعرابيٌّ من أفصح الناس، وزعم أنه شعر أبيه"[٢].

كوّن سيبويه كتابه من أقوال العلماء ومما استنبطه هو بنفسه فكان جِماعَ الفن شاملا كل ما يحتاج إليه طالبه مع الترتيب والتبويب، ولكل عصر طبيعته المتسقة معه، فترتيب الكتاب علىٰ غير المألوف في كتبنا المتداولة بين أيدينا، والإسراف في عناوين أبوابه جاوز الحد فقد بلغت عشرين وثماني مائة مع الغموض الذي لا يفصح عن المقصود لأول وهلة ومع التداخل في كثير من الأبواب، فمن ذلك علىٰ سبيل المثال: باب البدل، فقد قال: "هذا باب من الفعل يستعمل في الاسم ثم تُبْدِلُ مكانَ ذلك الاسم باب المُبْدَل من المبدل منه، باب بدل المعرفة من النكرة إلخ، بابٌ من البدل أيضًا"[٣]. وبعض عباراته الاصطلاحية حلت بَدَلَها عباراتٌ أخرىٰ عندنا، ونظرة أولية إلىٰ مستهله في ترتيب أبوابه وعناوينها واصطلاحاتها كافيةٌ في ذلك، قال: "هذا باب علم ما الكلم من العربية، باب مجاري أواخر الكلم من العربية، باب المسند والمسند إليه، باب اللفظ للمعاني، باب ما يكون اللفظ من الأعراض، باب الاستقامة من الكلام والإحالةُ، باب ما يَحْتمل الشعرُ، باب الفاعل...إلخ[٤].

فلم يك سيبويه في كتابه جَمَّاعًا لآراء السابقين فحسب، بل له شخصية قوية ظهرت في ابتداع بعض القواعد، وفي ترتيب الكتاب حاويًا عناصرَ الفن كلَّها، وتبويبَه، واضعًا كل شيء وما يتصل به معه، وحسن التعليل للقواعد، وجودة

(١) الكتاب ١/ ٣١٩.

(٢) السابق ٣/ ٣٠٠.

(٣) السابق ١/ ١٥٠.

(٤) السابق ١/ ١٢، ١٣، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٣ علىٰ الترتيب.

الترجيح عند الاختلاف، واستخراج الفروع من القياس الذي امتلأ به الكتاب، فكثيرا ما يقول: والقياس كذا أو والقياس يأباه، ويقول: "وسألت الخليل عن قول العرب: ما أُمَيْلِحَهُ. فقال: لم يكن ينبغي أن يكون في القياس، لأنَّ الفعل لايحقَّر، وإنما تحقَّر الأسماء....إلخ"(١)، وفي الحرص علىٰ الاعتزاز بالشواهد الوثيقة لدعم الأحكام التي قررها (٢).

وقد أحصى الأستاذ علي النجدي ناصف في كتابه عدد الأخذ ومَرَّاتِه عن شيوخه في جدول كالآتي(٣):

الترتيب	الاسم	عدد المرات
١	الخليل بن أحمد	٥٢٢
٢	يونس بن حبيب	٢٠٠
٣	أبو الخطاب الأخفش	٤٧
٤	أبو عمرو بن العلاء	٤٤
٥	عيسىٰ بن عمر	٢٢
٦	أبو زيد الأنصاري	٩
٧	هارون بن موسىٰ	٥
٨	عبدالله بن أبي إسحق	٧
٩	الكوفيون	٤

ومما يوثق هذه الروايات السابقةَ في الجدول تلك القصةُ التي أوردها السيرافي: أن يونس بن حبيب (المتوفي ١٨٣هـ) قيل له: إن سيبويه ألف كتابًا من ألف ورقة في علم

(١) الكتاب ٣/ ٤٧٧.

(٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ محمد الطنطاوي ص ٨٢-٨٤.

(٣) سيبويه إمام النحاة للأستاذ علي النجدي ناصف ص ١٠٢.

الخليل فقال: ومتىٰ سمع سيبويه من الخليل هذا كلَّه؟ جيئوني بكتابه، فلما نظر في كتابه ورأىٰ ما حَكَىٰ قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق فيما حكاه كما صدق فيما حكىٰ عني"[1].

ويؤكد ذلك ما جاء في (طبقات النحويين واللغويين) قال الزَّبيدي: "وهو (أي الخليل) الذي بسط النحو ومد أطنابه، وسَبَّبَ عِلَلَه وفَتَقَ معانِيَه، وأوضح الحِجَاجَ فيه حتىٰ بلغ أقصىٰ حدوده، وانتهىٰ إلىٰ أبعد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفًا، أو يَرْسُمَ منه رسمًا ترفعًا بنفسه وترفعًا بقدره، إذ كان قد تُقَدِّم إلىٰ القول عليه والتأليف فيه، فَكَرِهَ أن يكون لمن تقدمه تاليًا، وعلىٰ نظر من سبقه محتذيًا، واكتفىٰ في ذلك بما أَوْحَىٰ إلىٰ سيبويه من علمه، ولقَّنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه (الكتاب) الذي أعجز مَنْ تقدم قبله، كما امتنع علىٰ من تأخر بعده"[2].

وقد اتفقت كلمة العلماء عن أن الخليل واضعُ فَنِّ الموسيقىٰ العربية، وواضع علم العروض والقافية، وأول من دون معجمًا في اللغة بتأليفه (كتاب العين)، وله – بعدئذ – مأثُرَةٌ الشكلِ العربي المستعملِ الآن[3].

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٦٤، وطبقات النحويين واللغويين ص ٥٢، وتقديم تحقيق كتاب سيبويه للاستاذ هارون ١/ ١٩.

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٥٣، ٥٤.

(٣) نشأة النحو ص ٦١.

دستور يستحق العناية:

اهتم الدارسون من قديم بكتاب سيبويه شرحًا وتحليلا وتوضيحًا ودراسةً لشواهده وشرحًا لمشكلاته ونكته وأبنيته واختصارًا له، وكذا قامت مؤلفات لرد الاعتراضات عليه، كما كان له أثره في نحو الكوفيين "قال أبو جعفر وقد حكىٰ بعض النحويين أن الكسائي قرأ علىٰ الأخفش كتاب سيبويه ودفع له مائتي دينار"[(١)] كما كان للكتاب أثر – كذلك – في نحو الأندلسيين والمغاربة[(٢)].

وبعد عصر النهضة كان صاحب الفضل الأكبر في إحياء هذا الكتاب هو المستشرق الفرنسي (هرتويغ درنبرغ) أستاذ اللغة العربية الفصحىٰ بالمدرسة الخاصة للغات الشرقية في باريس، طبعه في مجلدين مع مقدمة فرنسية سنة ١٨٨١م[(٣)].

ثم نشره (موريس جاسترو) و(ماير لاسبير) سنة ١٨٨٩م [(٤)]، ثم كانت طبعة ثانية في (كلكتا) سنة ١٨٨٧ م، وكان عنوانها: "هذا الكتاب اسمه الكتاب وهو في النحو مثلُ أُمِّ الكتاب"، ومنها نسخة في دار الكتب المصرية [(٥)].

ثم كانت الطبعة الثالثة وهي الترجمة الألمانية الكاملة وتقع في خمسة مجلدات، طبعت من سنة ١٨٩٥م إلىٰ سنة ١٩٠٠م [(٦)].

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب سيبويه لهارون ١/ ٢٦.

(٢) انظر: مقدمة تحقيق كتاب سيبويه من ص ٢٦-٤١.

(٣) السابق ص ٤٢.

(٤) السابق ص ٤٩.

(٥) السابق ص ٥١.

(٦) السابق ص ٥٢.

ثم كانت طبعة بولاق ١٣١٦هـ/ ١٣١٨هـ/ ١٨٩٨ -١٩٠٠م وتلك بعد طبعة باريس بنحو إحدىٰ عشرة سنة، وقد أشرف علىٰ طبعها خادم التصحيح بالمطبعة الأميرية محمود مصطفىٰ، وامتازت هذه الطبعة بتذييل أسفلها بنص كامل لشرح أبيات الكتاب للأعلم الشَّنْتَمْرِي المسمىٰ: "تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب"[1].

وتمتاز هذه الطبعة بسمعة طيبة لدىٰ العلماء من المستشرقين ومنهم: (بروكلمان) الذي يقول: "وأصح طبعات الكتاب طبعة بولاق"[2]. وصورت طبعة بولاق هذه بالعراق.

ثم كانت طبعة الأستاذ عبدالسلام هارون التي اعتمد فيها علىٰ المخطوطات والأصول التي ذكرها في المقدمة[3]، وامتازت بمِيزات ذكرها[4].

وهي أصح الطبعات الآن ومرجع الباحثين، والكتاب جدير بهذا الجهد العلمي مما كان له أثره في الشرق والغرب.

الكتاب وقيمته

تعددت الروافد العلمية التي كونت شخصية سيبويه وكان أبعدَها أثرًا في نفسه شخصيةُ العبقري المبتكر الخليلِ بن أحمد الذي حباه بحبه، وخصه بعلمه، وهداه بدلالته، فكان تأليفه للكتاب الذي هو دستور العربية بناء وتركيبًا وأصواتًا وبلاغة

(١) مقدمة تحقيق الكتاب ١/ ٥٣.

(٢) السابق ١/ ٥٣، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ١٢٦.

(٣) السابق ١/ ٥٤ -٥٧.

(٤) السابق ١/ ٥٨.

وأداء، "واللغة أداة ومعرض العواطف وسجل الثقافة وصلة الماضي بالحاضر علىٰ مر القرون"(١).

كما أن الكتاب سجل لفكر سيبويه الصوتي يتصل بدراسة الصوت في ذاته ولم يغب الجانب الأدائي عن ملاحظة سيبويه لا سيما وهو يقرر في بداية حديثه عن الأصوات وعددها وأنها لا تتبين إلا بالمشافهة فهو لم يكن يتحدث عن صفات تجريدية فحسب بل كان الجانب التشكيلي يهمه بالدرجة الأولىٰ(٢).

مما يدل دلالة واضحة علىٰ أثر الخليل في فكر سيبويه؛ إذ لم نجد اهتمامًا بدراسة الأصوات بهذا الوعي عند أحد من النحويين من أقرانه أو ممن سبقوه، وهذا هو التفرد الذي يظهر في سيبويه وكتابه وهو أمر لا غنىٰ عنه لدارس النحو والصرف. يقول الدكتور/ عبدالله ربيع – رحمه الله –: "دراسة النحو في حاجة إلىٰ علم الصوتيات، وعلىٰ عالم النحو أن يتسلح به كي تكتمل لديه عُدَّة الباحث، وتتوفرَ له أدواته فيدرسُ قضايا النحو علىٰ أساس من طبيعة اللغة ذاتها، كاشفًا عن نظام تطورها، مراعيًا واقعها الفعلي وبخاصة نظامُها الصوتي... وإذا كان الأداء مُمَيِّزًا بين إعراب وآخر فإنه عامل مهم في تصنيف الجمل والتمييز بين نوع وآخر... من هذا وغيره مما لا يتسع المجال للوقوف معه يتضح لنا أن فهم النظام النحوي للغة ودراسته لا يمكن أن يتم دون معرفة نظامها الصوتي والأدائي ومدىٰ ما يسهم به هذا النظام الأخير في بناء الجملة

(١) سيبويه إمام النحاة ص ١٩١.

(٢) راجع في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ٢١٢، مؤسسة الرسالة، ط: الثانية ١٤٠٥هـ.

وتركيب الكلام وربط أجزائه بعضها ببعض بما يمكن أن يسمىٰ إذا تحددت قضاياه – بالنحو الصوتي"[١].

ويقول د. كمال بشر: "ولقد شهد علماء الغرب لبراعة العرب وتفوقهم في هذا المجال – يعني مجال دراسة الأصوات – فقد قال (برجستراسر): "لم يسبق الأوربيين في هذا العلم إلا قومان: العربُ والهنود"[٢].

ثم يعرض لعلم الصرف أو(المورفولوجيا) ويقول: "وهو من أكثر العلوم اللغوية استفادة بعلم الصوتيات، فكيف تقوم دراسة صرفية كاملة للغة دون وعي صوتي ومعرفة دقيقة بطبيعة الأصوات التي تُكَوِّن الصيغة، وبخصائصها، وما علاقة الأصوات بعضِها ببعض من حيثُ التجانسُ أوالتنافر في داخل الكلمة؟

ثم ما التغيرات الصوتية التي تتعرض لها الأصوات من الزيادة والحذف والتطويل والتقصير والإدغام والإبدال والقلب؟"[٣].

ثم ضرب أمثلة لذلك بـ"فاء الافتعال وتائه" ومتىٰ تُقلب التاء طاءً في جميع تصاريف افتعل مثل اصطبر واضطرب، ثم يتحدث عن التاء ومجاورتها لحرف من حروف الإطباق وتأثرها به ثم يقول: "وعلىٰ هذا فالطاء في (اصطبر) ليست صوتًا

---

(١) المختار من كتاب علم الصوتيات للدكتور/ عبدالله ربيع ص ٣١، طبعة كلية اللغة العربية بدمنهور سنة ١٤٠٦هـ

(٢) دراسات في علم اللغة د/ كمال محمد بشر، ص ٦٠، ط / التاسعة سنة ١٩٨٦، دار المعارف، مصر.

(٣) السابق، ص ٣٢.

لغويًا أو فونيمًا جديدًا إنما هي صورة من صور فونيم التاء، وهكذا تحتاج القضايا الصرفية لأن تُدْرَس من جديد بمنظار علم الصوتيات، وفي ضوء قوانينه"[١].

يقول الأستاذ/ علي النجدي ناصف عن كتاب سيبويه: "وأحسب أن لَّوْ وُزِنَ الكتابُ بكتب النحو كافة لرجَحَها وزنًا وأربىٰ عليها قيمة "[٢].

ولذلك دارت حوله مؤلفات كثيرة كما ذكرت سابقًا إما لشرحه وتوضيح غرائبه وتخريج شواهده وتجريد أحكامه، وإما لاختصاره سواء في الشرق أو في بلاد الأندلس[٣].

وما زالت الدراسات تترىٰ حول هذا الكتاب القيم، حول الكتاب ومادته وعنوانه ومصطلحاته والسماع والقياس والشواهد النحوية "أما ما كتبه المستشرقون عن سيبويه وكتابه فهو أكثر من أن يحصىٰ، ويكفي أن أشير هنا إلىٰ كتاب: "ما نفريد جوتس" وكتاب: "أو لركه موزل"، وغيرُ هؤلاء وأولئك كثيرون "[٤].

هذا، وقد جاء في الكتاب قواعد أصولية، فأشار سيبويه إلى المتروك الذي لم يُسمع، وما استغنوا عنه، من مثل قوله:

- ولم نسمعهم قالوا: قَرُبَ ولا نَصِف.
- كما قالوا: أعزل وعُزْل، ولم يقولوا: أعازل.
- وقالوا ضَخْم، ولم يقولوا: ضَخِيم كما قالوا: عظيم.

---

(١) المختار من كتاب الصوتيات، ص ٣٣.

(٢) سيبويه إمام النحاة، ص ١٩١.

(٣) انظر: شراحه والمصنفين عليه في: كتاب سيبويه إمام النحاة، ص ١٩٢.

(٤) دراسات وتعليقات في اللغة، د/ رمضان عبدالتواب، ص ٢٤٥، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: الأولىٰ ١٤١٤هـ.

- ولم نسمعهم قالوا: فَقُر، كما لم يقولوا في الشديد شَدُد، استغنوا باشتد وافتقر، كما استغنوا باحمار عن حَمُر.

- وقالوا: رفيع ولم نسمعهم قالوا: رَفُع، وعليه جاء (رفيع) وإن لم يتكلموا به، واستغنوا بارتفع.

- وقال ناس من العرب: وجد يَجُد كأنهم حذفوها (الواو) من يَوْجد، وهذا لا يكاد يوجد في الكلام(١).

وما ذكره أهل النحو من مقاييس تتعلق بالخفة والثقل، وما لا يجوز في الكلام ويجوز في الشعر وما يحفظ ولا يقاس عليه، وأن الأطراف في الكلمات محل للتغيير لضعفها مثل قوله:

- واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء.

- واعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة.. لأن النكرة أَوَّل.

- واعلم أن الواحد أشد تمكنا من الجمع؛ لأن الواحد الأولُ.

- واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث؛ لأن المذكر أول.

- اعلم أنه يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام من صرف ما لاينصرف يشبهونه بما ينصرف من الأسماء..

- وقالوا: ليت شعري في هذا الموضع استخفافًا لأنه كثر في كلامهم حتىٰ صار كالمثل.

- وقالوا: في التحول من حال إلىٰ حال هكذا، وذلك قولك: اسْتَنْوَقَ الجَمَلُ، واسْتَتْيَسَت الشاة.

---

(١) الكتاب والأمثلة علىٰ الترتيب ٤/ ٢٣، ٢٣، ٢٣، ٢٩، ٣٣، ٣٣، ٥٣، ٥٤.

- ليس في الكلام (تَفَاعَلَ) في الأسماء.
- ليس من كلام العرب أن يحذفوا ولا يعوضوا.
- وإنما يحفظ هذا حفظا ولا يقاس عليه.
- إنما الحركات من الألف والياء والواو.
- آخر الحروف أضعف لتغيره(١).

وما جاء في كتاب سيبويه من قواعد كان نواة لعلم أصول النحو التي ينتج عنها فروعه وأصوله، كما أن أصول الفقه هي أدلة الفقه التي تنوعت منها جملته وتفصيله، وفائدة ما ذكره سيبويه التأسيس لهذا العلم وفائدته: "التعويل في إثبات الحكم علىٰ الحجة والتعليل، وأن أصول النحو مشابهة أصول الفقه، وموضوعة علىٰ غرارها، وأن هناك ارتباطًا قويًا بين المادتين"(٢).

وقد نتج عن ذلك مؤلفات في أصول النحو مثل كتاب: "أصول النحو" لأبي بكر بن السراج المتوفي سنة ٣١٦هـ، وأبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه: "الخصائص"(٣).

ولعل هذا يفسر قول أبي عمر الْجَرْمِي (ت ٢٢٥هـ) "أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه"(٤)؛ أي: تَعَلَّمَ النظرَ والقياس والتفتيش من كتاب

(١) الكتاب، والأمثلة علىٰ الترتيب ١/ ٢٠، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٦، ٤/ ٤٤، ٤٤، ٧١، ٨١، ٨٣، ١٠٠، ١٠١، ١١٩.

(٢) انظر: تقديم الدكتور/ أحمد محمد قاسم لكتاب: الاقتراح في علم أصول النحو، للسيوطي ص ٤-٦ مطبعة السعادة، الأولىٰ ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

(٣) السابق نفسه.

(٤) طبقات النحويين واللغويين، للزَّبِيدي، ص ٧٥.

سيبويه لما فيه من قواعد تحمل علىٰ بعضها وصولاً للحكم. وعلم أصول الفقه وأصول النحو أخوان فهما يجريان من واد واحد.

فالأصولي يستعين بالنحو ويتوسل به في تقرير القواعد لإثبات الحكم واستنباطه. والنقد الأدبي يستهديه ويحتكم إليه في تحليل النص والدلالة علىٰ مكانه من الكلام الجيد في الصياغة والإعراب(١).

والبلاغة ولا سيما المعاني لها صلة وثيقة بالنحو، وقد اقتبس عبد القاهر الجرجاني منه في (أسرار البلاغة) (ودلائل الإعجاز)(٢). ويعرض علماء الأصول في كتبهم لكثير من مسائل النحو ويقدمونها بين يدي بحوثهم، أو يقيمون البحوث عليها، مثل: أقسام الكلام، والأمر والنهي، وألفاظ العموم، والاستثناء، وحروف المعاني، وقد نقل الثعالبي في: (فقه اللغة) من كتاب سيبويه، وكذلك ابن سِنَان الخفاجيُّ في: (سر الفصاحة) في الكلام عن "باب الكلام في المعاني المفردة من كتابه إلىٰ باب الاستقامة من الكلام والإحالة "(٣).

وحديث سيبويه في باب الإدغام عن الأصوات وما يدخل في صميم علم التجويد مما يجعله واضعًا وممهدًا لوضع علوم جديدة مما نستطيع معه أن نقول: "إن كتابه ليس أعظم مراجع النحو والصرف عامة وكفىٰ، ولكنه - مع ذلك - أصل من أصول الثقافة الإسلامية في غير ناحية من نواحيها المتعددة انشق عنها أو هَدَىٰ إليها وأَوْحىٰ بها"(٤).

---

(١) سيبويه إمام النحاة ص ١٩٤.

(٢) السابق.

(٣) نفسه ص ١٩٧.

(٤) نفسه ص ١٩٧ - ١٩٨.

وكان القدماء يُكْبِرُون الكتاب ويُثْنُون عليه، وكان المازني يقول: "من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"(١).

وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: "هل ركبتَ البحر؟ تعظيمًا واستصعابًا لما فيه "(٢).

هذا، وقد حدث من المبرد في شبابه أنه ألف كتابًا في الرد علىٰ سيبويه ثم لما تمكن في النحو رجع عن هذا الكتاب(٣).

وقال السيرافي عن سيبويه: "وعَمِلَ كتابَه الذي لم يسبقه إلىٰ مثله أحد، ولم يَلْحَق به مَنْ بعده"(٤).

أقول: وما زال الناس عيالاً عليه، فجزاه الله خيرا عن العربية وعلومها، وجزىٰ شيخه الخليل خير الجزاء وسلام عليهما في الخالدين وسلام عليهما في الأبرار والصالحين.

(١) الفهرست، لابن النديم، ص ٨٦.

(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص ٦٥، وسيبويه إمام النحاة ص ١٩٩.

(٣) ينظر: الخصائص لابن جني ١/ ٨٩، و ١/ ٢٠٦.

(٤) أخبار النحويين البصريين ص ٩٤.

القسم الثاني: أثره من الناحية اللغوية

أكرر: أنه لا تكاد حياة سيبويه تتجاوز علىٰ أرجح الأقوال أربعين سنة ونيفًا، فقد ولد حوالي سنة ١٤٠ هـ أو قبلها بقليل، وتوفي حدودَ سنة ١٨٠ هـ[١].

وقد ولد سيبويه بالبيضاء "قرية من قرىٰ شيراز من أعمال فارس"، ثم قدم البصرة ليكتب الحديث فلزم حَلْقَةَ حمادِ بن سَلَمَة، فبينما هو يستملىٰ علىٰ حماد قولَ النبي صلىٰ الله عليه وسلم "ليس من أصحابي إلا مَنْ لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء" فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء" وظنه اسمَ ليس، فقال حماد: لحنت يا سيبويه ليس هذا حيثُ ذهبتَ، وإنما "ليس" هاهنا استثناء فقال: سأطلب علمًا لا تُلَحِّنِّي فيه فلزم الخليلَ فَبَرَعَ"[٢]، وكان الخليل يحبه فكان تلميذا مقربًا إليه فنهل من علمه، وكان لذكائه أكبرُ الأثر في الاستفادة منه قال ابن النَّطَّاح: "كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل: مرحبًا بزائر لا يُمَل، قال أبو عمرو المخزومي: وكان كثير المجالسة للخليل، ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه"[٣].

هذا، وكانت الإباضية كانت فرقة موجودة في البيئة التي ولد فيها الخليل بن أحمد وهي موجودة بها حتىٰ اليوم، وتنسب إلىٰ عبد الله بن إباض التميمي، وعن الأصمعي قال: كادت الإباضية تغلب علىٰ الخليل حتىٰ مَنَّ الله عليه بمجالسة

---

(١) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٢٥، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٦٦، والفهرست لابن النديم ٦١-٧٦، ومعجم الأدباء ١٦/ ١١٥.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٦٦.

(٣) السابق ص ٦٧.

أيوب[١]، وأيوبٌ هو أيوب السِّخْتِيَانِي سيد الفقهاء، ولد سنة ٦٦هـ/ وتوفي سنة ١٢٥هـ[٢]، فبمجالسة هذا الإمام الجليل انتقل إلىٰ مذهب أهل السنة والجماعة، وسار علىٰ هذا حياته حتىٰ توفي سنة ١٧٠هـ أو ١٧٥هـ[٣].

كما كان سيبويه هو الآخر كما وصفه أبو الفرج الرياشي: "سُنِّيًّا علىٰ مذهب أهل السنة"[٤].

واشْتُهِر هذا العالم الكبير أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر بهذا اللقب(سيبويه) الذي أصبح علمًا علىٰ الالتزام بقواعد اللغة الفصحىٰ معرفةً وأداء[٥].

وكان يجيد القراءات القرآنية، وكانت قراءته علىٰ تلاميذ أبي عمرو بن العلاء(ت ١٥٤هـ)[٦].

وفي المناظرة المشهورة في المسألة الزُّنْبُورِيَّة التي انتصر فيها الكسائي زورًا ومجاملة من بعض الأعراب المحكمين الذين كانوا علىٰ صلة بأنصار الكسائي، وكان الوجه علىٰ ما يراه سيبويه "بعد هذه المناظرة خرج سيبويه من بغداد محزونًا كاسف البال، وقد اختار أن يرحل عن هذه الديار التي اهتزت صورته فيها، وكيد له حتىٰ انهارت منزلته وأزمع الرحيل إلىٰ (خرسان) راغبًا في الهدوء والعطاء في كَنَفِ طلحة

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٤٨.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ١/ ٣٩٨.

(٣) طبقات النحويين، ص ٥١.

(٤) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٦٨.

(٥) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٢٥.

(٦) غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري ١/ ٦٢، ٢٩٠، نشره ج برجستراسر، ط: السعادة سنة ١٣٥١هـ، وكتاب التطور اللغوي د/ عبد الصبور شاهين، ص ٨٦.

بن طاهر بن الحسين – أشهر قواد المأمون والي خراسان – وكأنما كان سيبويه في طريق النهاية بهذه الرحلة الأخيرة، فقد أصابه المرض في طريق خراسان، ومات عام ١٨٠ هـ علىٰ خلاف في سنة وفاته وفي مكانها[1].

ولكن سيبويه لم يمت، وبقي كتابه يُعلِّم الأجيال بما ضمه من أفكاره وآرائه وآراء معاصريه وشيوخه في كل ما عنَّ له من تراث العربية، يعتمد عليه الدارسون مهما اختلف بهم الزمان والمكان.

الكتاب

تَفَرَّدَ كتاب سيبويه بهذا الاسم بحيث إذا أُطلق (الكتاب) انصرف الذهن إليه؛ لأنه يعدل في ميزان التأليف عشرات من الكتب والأمهات، وقد عَرَضَتْ في التاريخ شبهاتٌ تُضْعِفُ نسبةَ الكتاب إلىٰ سيبويه، وتجعله شركة بينه وبين مجموعة من الناس بلغ عددهم واحدًا وأربعين، وأن للخليل في الكتاب الأصولَ والمسائل، وهذه دعوىٰ فندها الأستاذ علي النجدي ناصف ورد عليها ردًا علميًا، وردَّ علىٰ من قال بأن كتاب سيبويه هو في الحقيقة كتاب (الجامع) لعيسىٰ بن عمر، وأن سيبويه بَسَطَهُ وَحَشَّا عليه من كلام الخليل وغيره، وكذلك رد الدكتور/ عبدالصبور شاهين علىٰ هذه الدعاوىٰ وأيد ما ذهب إليه الأستاذ علي النجدي ناصف؛ قال: "فأنت من حيثُ نظرتَ إلىٰ هذه القصة لا ترىٰ إلا شكًا وغَمطًا، وما أراك ملومًا ولا متحيزًا إذا عددتها من أمثلة المنافسة والعصبية في الصناعة، فليس لنحوي قديم ولا حديث كتاب يجاري كتاب سيبويه أو يدانيه، والبصريون والكوفيون في هذا سواء، شهد بذلك الأقدمون، وأيدتها مزايا الكتاب؛ ولا نجد نحن لردها أو تفنيدها سببًا، وإن يكن ثَمَّتَ فَرْقٌ بين

(١) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين، ص ١٢٩.

البصريين والكوفيين في هذا المقام، فللبصريين بالكتاب فخر واعتزازُ أنه كتاب إمامهم سيبويه"[١].

بينه وبين (كتاب العين)

بدأ الخليل (كتاب العين) بمقدمة مألوفة النظام تبين موضوعه بإجمال، فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم بحمد الله نبتدئ ونستهدئ، وعليه نتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل، هذا ما ألف الخليل بن أحمد البصري من حروف أ ب ت ث مع ما تكملت به فكان مدارَ كلام العرب وألفاظَهم"[٢].

بينما نلاحظ أن كتاب سيبويه خلا تمامًا من مقدمة. يقول د/ عبدالصبور شاهين: "فليس له مدخل ولا مقدمة مما تعورف عليه في كتب القدماء والمحدثين، ويعزو النقاد هذا النقص إلىٰ أن سيبويه لم يتمكن من ذلك، ربما لأن الموت احتضره قبل أن يعيد فيه نظره، ويُصْلِحُ من ترتيبه، وربما لم ير أهمية لتلك المقدمة بسبب حداثة التجربة التىٰ بدأها، ولم يسبقه بها أحد من معاصريه"[٣].

إذ غاب عنه نسق التقديم والتمهيد أو علىٰ الأقل ما أورده الخليل في مقدمة (العين)، وبدأ كتابه مباشرة بقوله: "هذا باب عِلْمُ ما الكلمُ من العربية، فالكلم:

---

(١) سيبويه إمام النحاة ص ١٣٥، وفي التطور اللغوي ص ١٣٢.

(٢) مقدمة العين للخليل بن أحمد ١/ ٥٢، بتحقيق د/ عبدالله درويش، بغداد ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

(٣) في التطور اللغوي، د/ عبدالصبور شاهين، ص ١٣٣.

وربما كان ذلك هو الشائع في كتب العلماء في هذا الوقت المبكر كما رأينا في كتب الحديث الصحيح: البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، وغريب الحديث لأبي عبيد (٢٢٤هـ)، والغريب المُصَنَّف له أيضًا، فهذه المؤلفات ليس لها مقدمات.

اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنىٰ ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجل، وفرس، وحائط، وأما الفعل فأمثلة أُخِذَت من لفظ أحداث الأسماء[١]، وبُنِيَتْ لما مضىٰ، ولما يكون ولم يقع وما هو[٢]، كائن لم ينقطع[٣] فأما بناء... ولام الإضافة ونحو هذا"[٤].

وبعد هذا التقسيم يقول: "هذا باب مجارىٰ أواخر الكلم من العربية، وهي تجري علىٰ ثمانية مجار علىٰ النصب والجر، والرفع والجزم، والفتح والضم، والكسر والوقف"[٥].

ولعل هذا الذي اكتفىٰ به سيبويه في مستهل تأليفه هي الأمور التي تعد من مقدمات العلم الذي كان مزمعًا تقعيد قواعده، فيكون هذا الكلام منه مقدمةً مناسبة في رأيه، ثم استطرد إلىٰ آخر الكتاب عرض الأبواب والحديثَ عنها[٦].

وقد طبع الكتاب بالمطبعة الأميرية عام ١٣١٦هـ، وطبع بعد ذلك طبعات أخرىٰ في الشرق والغرب حتىٰ أخرجه شيخ المحققين الأستاذ/ عبدالسلام هارون في تلك الطبعة التي بين أيدينا كما سبق في بداية البحث.

---

(١) أي من المصادر، فالمصدر عند سيبويه أصل المشتقات.

(٢) هو الأمر.

(٣) هو المضارع بالاستعمال المألوف عندنا كما سيتضح.

(٤) الكتاب ١/ ١٢.

(٥) السابق ١/ ١٣.

(٦) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٣٤.

منهج الكتاب:

يقول الدكتور/ عبدالله ربيع: إن قضية المنهج من أهم وأخطر قضايا البحث والفكر، فعليه تتوقف صحة النتائج أو خطؤها"(١).

والمنهج في أبسط معانيه هو الخيط الذي يتخذه مؤلف معين ليسلك فيه موضوعاتِ تفكيره أو دراستِه، ويراد بكلمة المنهج، عمليًا: الخُطَّةُ التي اتبعها مؤلف الكتاب في علاج المشكلة التي اختارها موضوعًا له، وقيامُها علىٰ أساس من المنطق أو الاستقرار أو منهما معا، كما يراد بها: النظام الذي سلكه في علاج جزئيات الدراسة من حيثُ استعمالُ المادة وتقديم المناقشة أو تأخيرها، وإبداء الرأي الشخصي، وتقديمُ آراء الاخرين، وإصدارٌ نهائي، أو تعليقُ الموقف من باب التحفظ والحَيْطَة"(٢).

وقضية المنهج في كتاب سيبويه – أو منهج سيبويه في كتابه – تناولها الأستاذ/ علي النجدي ناصف في كتابه، وحاول أن يلقي ضوءًا كاشفًا علىٰ طريقة سيبويه في علاجه للمسألة الواحدة أو الباب الواحد، وكان ذلك في حديثه عن منهج سيبويه، فقال: "نَهَجَ سيبويهِ في دراسة النحو منهجَ الفطرة والطبع، يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأىٰ فيها صحة وخطأ أو حسنًا وقبحًا أو كثرة وقلة، لا يكاد يُعَرِّفَ معرفًا، أو يلتزم مصطلحًا أو يُفَرِّعَ فروعًا، أو يشترط شرطًا علىٰ نحو ما نرىٰ في الكتب التي صنفت لعهد ازدهار الفلسفة واستبحار العلوم. فهو في جملة الأمر يقدم مادة النحو الأولىٰ موفورة العناصر كاملة المُشَخِّصَات لا يكاد يعوزها إلا استخلاص الضوابط، وتصنيع الأصول علىٰ ما تقضي الفلسفة المدروسة، والمنطق

(١) كتاب المختار من علم الصوتيات د/ عبدالله ربيع ص ١١.

(٢) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٣٤.

الموضوع، وفرقُ ما بينه وبين الكتب التي جاءت بعد عصره كفرق ما بين كتاب في الفتوىٰ وكتاب في القانون، ذاك يجمع جزئيات يدرسها ويصنفها ويصدر أحكامًا فيها، والآخر يجمع كليات يصنفها ويشققها لتطبق علىٰ الجزئيات. ومعلوم أن لكل باب في كتاب – بل لكل مسألة في باب – مقتصيات خاصة، وطبيعة متميزة قليلا أو كثيرًا، وإذن فلا يُنتظر أن يعالج سيبويه أبواب الكتاب ولا مسائل الأبواب علاجًا واحدًا مطردًا، ومع ذلك يمكن أن يقال علىٰ الإجمال: إنه في تصنيف الكتاب كان يتجه إلىٰ فكرة الباب كما تتمثل له، فيستحضرها، ويضع المعالم لها، ويتعرف حاجتها من الأمثلة فيجمعها ويصنفها، ثم يعرضها جملة أو آحادًا، وينظر فيها تصعيدًا وتصويبًا يحلل التراكيب ويُؤَوِّلُ الألفاظ، ويقدر المحذوف، ويستخلص المعنىٰ المراد، وفي خلال ذلك يوازن، ويقيس، ويذكر، ويعد، ويستفتي الذوق، ويستشهد الشواهد، ويلتمس العلل، ويروي القراءات وأقوال العلماء إما لمجرد النص والاستيعاب، وإما للمناقشة وإعلان الرأي، وربما طاب له الحديث وأغراه البحث فمضىٰ ممعنا متدفقًا يستكثر من الأمثلة والنصوص، حتىٰ تنقطع أو يُدْرِكُكَ الْبَهَر، واللغة عنده وِحْدَة متماسكة، يفسر بعضها بعضا، ويقاس بعضها علىٰ بعض"[1].

ويرىٰ الدكتور/ شاهين أن طريقة سيبويه في الدراسة كانت طريقة فذة لم يقلده فيها – أو لم يستطع تقليده فيها – أحد ممن اشتغلوا بالنحو بعده فقد كان يفهم من النحو ما نفهمه نحن الآن من علم التراكيب وهو مفهوم يُدْرَسُ في إطاره فن التعبير،

(١) سيبويه إمام النحاة / علي النجدي، ص ١٦٣، ١٦٤، وانظر كذلك في التطور اللغوي، د/ عبدالصبور شاهين، ص ١٣٥، ١٣٦.

وعلاقات أجزاء الجملة بعضها ببعض، وعلاقات الجمل فيما بينها، ومن ثم وجدناه يعتمد في دراسته علىٰ تقديم نماذج التعبير المأثورة كما سمعها من العرب، أو من شيوخه دون أن يلجأ إلىٰ الأمثلة المصنوعة إلا لإيضاح الفكرة أو تشخيص القاعدة، أو حيث لا يجد تعبيرًا مأثورًا يرقىٰ إلىٰ مستوىٰ الاحتجاج.

ووجدناه أيضًا يقدم إلينا مباحث في فن التعبير لا تدخل الان في نطاق النحو، بل هي من أبواب علم المعاني كما يدرسه البلاغيون، مع أنها من وجهة النظر اللغوية الحديثة من صميم علم (النحو) بل إن مباحث علم المعاني أشد اتصالاً بالدراسات اللغوية منها بالدراسة البلاغية(١).

وهذا ما نجده في عناصر علم اللغة النصي حديثًا ومعاييره التي تقوم علىٰ السَّبْك والحَبْك وهو الربط النحوي والتماسك الدلالي(٢).

وما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في قوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ علىٰ قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغُ عنها وتحفظ الرسوم الذي رُسمت لك فلا تُخِلَّ بشيء منها"(٣).

---

(١) في التطور اللغوي، د/ عبدالصبور شاهين، ص ١٤٠-١٤١.

(٢) انظر كتاب: علم لغة النص د/ سعيد بحيرىٰ ص ١٤٦، لونجمان، القاهرة ١٩٩٧م، وكتاب النص والخطاب والإجراء لمؤلفه روبرت دي بو جرانده / ترجمة د/ تمام حسان ص ١٠٧، عالم الكتب، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٥٥، تح / أحمد المراغي، طبعة قديمة، بمصر ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

وعلىٰ هذا كانت دراسة سيبويه للنحو ومسائله وليس علىٰ ما بين أيدينا من ترتيب الأبواب اليوم علىٰ طريقة ألفية ابن مالك، والخط المنهجي العام في الكتاب "وهو خط لاحظه جميع من ناقشوا مسألة ترتيب مواده، فالنحو أولاً، يليه الصرف، ثم الأصوات"(١).

ولست هنا بحاجة إلىٰ بيان منهجه وطريقته في تسمية الأبواب والمصطلحات والتعبيرات الخاصة، وتطورها من خلال أبواب الكتاب، وطريقته في التعليل، فهذا سبيل النحويين.

ويحسن هنا أن أشبع الحديث عن الجانب اللغوي ودراسة الأصوات عند سيبويه، ذلك الأمر الذي لفت أنظار المستشرقين حتىٰ تقدم باحث ألماني برسالة له وألقىٰ محاضرة عنها منذ قرن من الزمان أو يزيد بجامعة القاهرة وهو (شاده) الألماني، وكان عنوانها" علم الأصوات عند سيبويه وعندنا"(٢).

عقد سيبويه في (الكتاب) بابًا سماه "باب الإدغام" وقال: "هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوالِ مجهورها ومهموسها واختلافِها"(٣).

ثم بين الأصل في عدد الأبجدية وأنه تسعة وعشرون حرفًا سَرَدَها متتابعةً حَسْب المخرج، ثم بين أنها تكثر حتىٰ تصبح اثنين وأربعين صوتًا قال: "فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين،

---

(١) انظر: في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٤٥.

(٢) انظر: الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص ١١٢، طبعة الأنجلو المصرية، الرابعة، ١٩٧١م.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣١.

والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والطاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو.

وتكون خمسةً وثلاثين حرفا بحروفٍ هن فروعٌ، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بَيْنَ بين، والألف التي تمال إمالةً شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم، يعنىٰ بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة.

وتكون اثنين وأربعين حرفًا بحروف غيرِ مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغة من تُرتضي عربيتُه، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء.

وهذه الحروف التي تَمَّمْتُها اثنين وأربعين جيدُها ورديئها أصلُها التسعة والعِشرون، لا تُتَبَيَّن إلا بالمشافهة..."(١).

ويلاحظ الدكتور/ عبدالصبور شاهين أن سيبويه هنا "يتحدث عن لغة مشافهة منطوقة ومسموعة لا عن لغة مكتوبة، ومن ثم وجدنا أصوات الهجاء تكثر حتىٰ تصبح اثنين وأربعين صوتًا، علىٰ حين أن حروف الهجاء المكتوبةَ تسعة وعشرون رمزًا لتسعة وعشرين صوتًا أصليًا، هذا الفرق بين العددين ناشئ عن ملاحظة الممارسة اللغوية في ألسنة العرب"(٢).

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣١-٤٣٢.

(٢) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٨٣.

وهذا الفرق يضم مجموعتين من الأصوات:

أ- مجموعة مستحسنة، هي:

١ - النون الخَفِيَّة، ويُقْصد بها (الغُنَّة) أو النون الأنفية التي تظهر في قراءة القرآن في حالة ما يسمىٰ (بالإخفاء).

٢ - الهمزة التي بين بين وهي الهمزة المُسَهَّلَة التي لا يضغط الناطق علىٰ أوتار الحنجرة عند أدائها.

٣- الصاد التي تكون كالزاي، وهي تلك الصاد الساكنة قبل صوت مجهور في مثل نطقنا لكلمة (مَصْدَر).

٤ - الألف الممالة إمالةً شديدة، وهذه الألف ترتبط بمجموعة من القواعد التي تنظم ظاهرة الإمالة في القراءات القرآنية.

٥ - ألف التفخيم، وهي الألف التي كان ينطقها أهل الحجاز في كلمات لا يتطلب سياقها الصوتي تفخيمًا.

٦ - الشين التي كالجيم، والمُشَبَّه به في هذا التعبير صوت حير المحدثين من اللغويين وَصْفُه، إذ هو غير محدد الأوصاف علىٰ وجه القطع ولذلك لا يمكننا الجزم بماهية (الشين التي كالجيم) فيما ذكر سيبويه إلا بعد أن نتصور ماهية الجيم الفصحىٰ أساسًا.

ب- أما الأصوات غير المستحسنة - لا في لغة من تُرْتَضَىٰ عربيته، ولا في قراءة القرآن ولا في الشعر - فقد عدها سيبويه سبعة أصوات، هي:

١ - الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيمُ التي كالكاف.

٢ - الجيم التي كالسين.

٣- الضاد الضعيفة.

٤ - الصاد التي كالسين.

٥ - الطاء التي كالتاء.

٦- الظاء التي كالثاء.

٧- الباء التي كالفاء.. (١).

ولكن ما هي مصادر سيبويه اللغوية؟

لا شك أن ذلك أمر مهم، فكتاب سيبويه مِنْ أقدم المصادر التي وصفت الأصوات العربية وصفًا تفصليا يعتمد علىٰ تقرير الواقع المعاصر لمؤلفه خلال القرن الثاني الهجري (١٤٠هـ - ١٨٠هـ تقريبا). ومصادره تتمثل فيما يأتي:

أولاً- أنه عاصر قراء القرآن الكريم وأخذ عنهم القراءة عَرْضًا وسماعًا.

ثانيًا- أنه كان تلميذًا للخليل بن أحمد أعظم علماء الأصوات آنذاك.

ثالثًا: أن سيبويه شَافَهَ الفصحاء من العرب وخَبَرَ طريقةَ هؤلاء وأولئك في أداء اللغة ووقف منهم موقف الناقد الذي يميز بين ما هو من الفصيح، وما هو دون الفصيح(٢).

ويقول الدكتور/ أنيس عن الخليل أيضًا كمصدر من مصادر الكتاب: "وأخيرًا - وليس آخرًا - هو صاحب المباحث المستفيضة التي جاءت في كتاب سيبويه"(٣).

ويقول أيضًا: "وقد لخص سيبويه في آخر كتابه المشهور آراء الخليل في أصوات اللغة في دقة وأمانة، وهي لذلك جديرة بالدراسة والشرح في ضوء الدراسات الحديثة للأصوات العربية"(٤).

---

(١) ينظر: في التطور اللغوي، د/ عبدالصبور شاهين، من ص ١٨٣-١٨٥ ومن ص ١٩١-١٩٥ باختصار، وينظر: الكتاب ج ٤، باب الإدغام، ص ٤٣١ وما بعدها.

(٢) في التطور اللغوي، د/ عبدالصبور شاهين، ص ١٨٢.

(٣) الأصوات اللغوية، د/ أنيس، ص ١٠٥.

(٤) الأصوات اللغوية ، ص ١٠٦.

وقد ذكر ابن الجزري أن سيبويه قرأ علىٰ أبي عمرو بن العلاء[١] (٧٠هـ – ١٥٤هـ)، وأبو عمرو بن العلاء توفي وسيبويه في الرابعةَ عَشْرَةَ من عمره، ولكن الراجح أن سيبويه لم يسمع من أبي عمرو بن العلاء، وإنما تلقىٰ القراءاتِ واللغةَ والنحوَ من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، وفي مقدمتهم الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب إذ كانت البصرة في زمن أبي عمرو بن العلاء لا تسمع إلا منه، ولا تأخذ إلا عنه، سواء في ذلك القراءات أو النحو أو اللغة، وأن الذين ترجموا لسيبويه يذكرون دائما أنه بدأ طلبه للعلم بدراسة علوم الدين، ثم انصرف إلىٰ علوم الأدب، ثم غلب عليه النحو حتىٰ صار فيه الإمام الأعظم، قال القِفْطِي: "كان سيبويه في أول أيامه صحب الفقهاء، وأهل الحديث"[٢]، وكذلك قال الزبيدي[٣].

وكان حماد[٤] هذا يرىٰ أن تعلم النحو شرط أساسي لتعلم الحديث، فيقول: "مَثَلُ الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مَثَلُ الحمار عليه مِخْلاةٌ ولا شعير فيها" وقد جلس إليه سيبويه في أول طلبه للعلم وأخذ عنه الحديث، ثم عدل عنه إلىٰ مجلس الخليل بن أحمد ليأخذ النحو واللغة[٥]، ولما مات أبو عمرو بن العلاء خلا

---

(١) طبقات القراء، لابن الجزري، ١/ ٢٦٠.

(٢) انباه الرواة علىٰ انباه النحاة للقفطي ٢/ ٣٥٠، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب سنة ١٣٦٩هـ، وراجع هذا الترجيح في رأي الدكتور / عبدالصبور شاهين ضمن كتابه (في التطور اللغوي)، ص ١٢٦.

(٣) طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، ص ٦٦، ط / دار المعارف.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ، ص ٥١، وقال يونس بن حبيب: "أولُ مَنْ تعلمتُ منه النحوَ حمادُ بنُ سَلَمَةَ وعاش ثمانيا وثمانين سنة، وكان النحو أغلب علىٰ يونس " السابق نفسه.

(٥) انظر: في التطور اللغوي، ص ١٢٧.

الجو لحماد بن سلمة بالبصرة ليتصدر ويأخذ عنه طلاب العلم، وقد توفي عام ١٦٧ هـ أي أنه عاش بعد أبي عمرو ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً هي التي التقىٰ به خلالها سيبويه(١).

صفات الأصوات

بعد ذكر سيبويه لمخارج الأصوات وعدد حروف العربية وما زاد عليها من حروف أصلها التسعة والعشرون، التي لا تُتَبَيَّنُ إلا بالمشافهةِ، وما هو مستحسن منها، وما هو غير مستحسن ممن تُرْتَضَىٰ عربيته، ذكر سيبويه صفات كثيرة للأصوات يمكن تصنيفها علىٰ الوجه التالي:

١- **صفات عامة هي**: الجهر والهمس، والشدة والرخاوة والتوسط.

٢- **صفات خاصة**: تتميز بها مجموعات صغيرة من الأصوات، وهي:

الإطباق والانفتاح، واللين والحد، والاستطالة والتفشي، والصفير والغنة.

٣- **صفات خاصة تتميز بها أصوات مفردة**، وهي الانحراف، والتكرير(٢).

ولا شك أن للزمن أثرًا في تطور مخارج بعض الأصوات وصفاتها، وأن هناك مصطلحات صوتية في كتاب سيبويه وغيره من المؤلفات اللغوية التي جاءت بعد الخليل ومدرسته يكثر فيها الكلام ويستفيض الحديث للتعريف بالغامض منها، ولأستاذنا الدكتور علي سيد أحمد جعفر كتاب "مصطلحات صوتية غامضة"(٣)، ولولا أن يطول البحث لعرضت ما في الكتاب، وما توصل إليه أستاذنا، وأحيل إلىٰ الكتاب لتعم الفائدة وأسأل الله التوفيق، وأكتفي هنا في ذكر أثر الخليل في علم سيبويه

---

(١) السابق نفسه.

(٢) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ١٩٩.

(٣) مصطلحات صوتية غامضة، أ. د/ علي سيد جعفر، من منشورات مجمع اللغة العربية بمكة المكرمة علىٰ الشبكة العالمية، سنة ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م.

الصوتي وإنجاز سيبويه واجتهاده فيما قدم في بحث الصفات العامة والخاصة والأصوات المفردة.

الصفات العامة:

وصف سيبويه الأصوات بالجهر والهمس، فالصوت إما مجهور أو مهموس، وكان تعريفه للمجهور أنه "حرف أُشْبِعَ الاعتماد في موضعه ومُنِعَ النَّفَسُ أن يجري معه حتىٰ ينقضي الاعتماد عليه ويَجْرِيَ الصوت"(١)، أما المهموس فهو حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتىٰ جرىٰ النفس معه"(٢).

وتساءل الباحثون بعد سيبويه عن مراده بكلمة (الموضع) في التعريفين، وقد استخدم سيبويه كلمة (الموضع) في مكان آخر من الكتاب يُحَتِّم أن يكون معناها (المخرج) فقال حينما تحدث عن الحروف المطبقة والمنفتحة: "فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء، والمنفتحة كل ما سوىٰ ذلك من الحروف؛ لأنك لا تطبق شيء منهن لسانك، ترفعه إلىٰ الحنك الأعلىٰ، وهذه الحروف إذا وضعت لسانك في مواضعهن، انطبق لسانك من مواضعهن إلىٰ ما حاذىٰ الحنك الأعلىٰ من اللسان ترفعه إلىٰ الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلىٰ موضع الحروف، وأما الدال والزاي ونحوهما فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهن، فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُيِّنَ ذلك بحصر الصوت"(٣).

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(٢) السابق.

(٣) السابق ٤/ ٤٣٦.

فإذا أخذنا بهذا التفسير لكلمة (الموضع) كان لنا أن نفهم "إشباع الاعتماد في الموضع بأنه "العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت"[١].

إذا كان سيبويه "يشعر بهذا الاشباع في كل مجرىٰ الصوت منذ صدوره من الرئتين إلىٰ انطلاقه إلىٰ الخارج، فكلمة الموضع هنا هي ما عبروا عنه بالمجرىٰ"[٢].

وتعريف سيبويه أمام علماء الأصوات المحدثين فيه دلالة علىٰ "أن الحس المرهف لسيبويه جعله يشعر مع المجهور باقتراب كل من الوترين الصوتيين أحدِهما من الآخر حتىٰ ليكادَ أن يسدان طريق التنفس "[٣].

وهذا يدل علىٰ مدىٰ ذكاء وفطنة سيبويه في وقت لم يكن هناك تشريح للجهاز الصوتي ومعرفة الحنجرة، ولكن إحساس سيبويه أوصله لما وصل إليه العلم الحديث[٤] في هذه "الصفة التي وضحها المحدثون حين وصفوا ما يجري في الحنجرة مع المجهورات؛ إذ قالوا إنه مع المجهور يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الاخر مما يُضْطَرُّ هواءَ النَّفَسِ إلىٰ الاندفاع من بينهما في قوة تحرك الوترين الصوتين وتجعلهما يتذبذبان حتىٰ ينقضي الاعتماد؛ أي: حتىٰ تنتهي العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت"[٥].

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١٢٥.

(٢) السابق نفسه بتصرف.

(٣) نفسه بتصرف.

(٤) انظر: الأصوات اللغوية ص ١٢٧.

(٥) السابق ص ١٢٥ وما بعدها.

أما في المهموس فقد شعر سيبويه بعدم تمكن الصوت في أثناء جريانه في مجراه، مما يترتب عليه قلة وضوحه، كذلك نجد طريق التنفس معه مفتوحًا بحيث يسمح بانسيابه حرًا طليقًا، ولذلك كان تعبير سيبويه في المهموس بضعف الاعتماد"[١].

كما حدد سيبويه مصطلحي الشدة والرخاوة، وقامت التفرقة بين الصفتين على أساس فكرة (التوتر)، ويراد بها ما يطرأ على أعضاء النطق من نشاط مهما كان، فلهذه الأعضاء وضعان: وضع (الراحة) وذلك حين لا تقوم بأي نشاط، ووضعُ (التوتر) الذي ينشأ عن تحرك عضلات النطق لإنتاج الأصوات خلال العملية الكلامية، ولا شك أن أية حركة مرتبطة دائما بحدوث (شد وتوتر) في هذه العضلات[٢].

فالشديد هو: "الذي يَمْنَعُ الصوتَ أن يَجْرِيَ فيه"[٣].

والرِّخو هو: "الذي يجري فيه الصوت"[٤].

ونلاحظ من كلام سيبويه أن المنع في حالة الشدة مُنْصَبٌّ على الصوت لا على النَّفَس، وهو بهذا يشمل المجهور والمهموس، ويرى الدكتور/ شاهين أن (التوتر) في ضوء كلام سيبويه يشمل درجات قصوى ووسطى ودنيا، وأن سيبويه أضاف إلى هاتين الصفتين صفة ثالثة أدركها في صوت واحد هو (العين) فجعلها متوسطةً بين الشدة والرخاوة [٥].

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١٢٦.

(٢) في التطور اللغوي د/ عبدالصبور شاهين ص ٢٠٦ وهامشه.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(٤) السابق ٤/ ٤٣٥.

(٥) انظر في التطور اللغوي ص ٢٠٧.

يقول سيبويه: "وأما العين فبين الرخاوة والشدة تصل إلىٰ الترديد فيها لشبهها بالحاء"(١).

ويقول الدكتور/ أنيس عن تعريف سيبويه للشديد: "وهذا هو الانحباس المؤقت الذي نحس به في مخرج الحرف لحظة قصيرة جدًا بسبب التقاء العضوين التقاء محكمًا، فإذا انفرجا فجأة سمعنا ما يسمىٰ بالصوت الشديد، وهو ما يسميه الأوربيون بالصوت الانفجاري"(٢).

وهذا يدل علىٰ فهم كبير وإدراك شديد من سيبويه لهذه الصفات وتعريفه بها، وبهذه المصطلحات التي لم تكن لأحد قبله إلا أن يكون الخليلَ بن أحمد الذي أخذ عنه ولخص آراءَه الصوتية "في دقة وأمانة، وهي لذلك جديرة بالدراسة والشرح في ضوء الدراسات الحديثة للأصوات اللغوية"(٣).

وفي إحصاء الأصوات وصفاتها عند سيبويه يمكن أن تكون كالتالي(٤):

فأما المجهورة فالهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو. فذلك تسعة عشر حرفًا.

وأما المهموسة: فالهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء. فذلك عشرة أحرف.

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٤-٤٣٥.

(٢) الأصوات اللغوية ص ١٢٦.

(٣) السابق ص ١٠٦.

(٤) الكتاب، ٤/ ٤٣٤-٤٣٥.

ومن الحروف: الشديد، وهو الذي يَمْنَعُ الصوتَ أن يَجْرِيَ فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء. وذلك أنك لو قلت (ألحج) ثم مددت صوتك لم يَجْرِ ذلك.

ومنها الرخوة، وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء.

وأما العين فبين الرخوة والشديدة، تصل إلىٰ الترديد فيها لشبهها بالحاء.

هذا وللمُحْدَثِين ملاحظات على هذا الإحصاء، وهي:

أولاً – عَدَّ سيبويه من بين الأصوات المجهورة الهمزةَ، وقد نفىٰ عدها المحدثون صفة الجهر علىٰ الإطلاق، ويرىٰ الدكتور/ شاهين أنها "فيما يُخْتار صوت مهموس"[(١)].

ويرىٰ الدكتور أنيس أنها "صوت شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس"[(٢)]؛ لأن مخرجها عنده من المزمار نفسه، وهو يريد الهمزة المحققة إذ عند النطق بها تنطبق فتحة المزمار انطباقًا تامًا فلا يُسمح بمرور الهواء إلىٰ الحلق، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع هذا الصوت الانفجاري الذي نعبر عنه بالهمزة[(٣)].

ثانيًا – عد سيبويه من بين الأصوات الرخوة (الضاد) وقد أصبحت بعد تطورها من الأصوات الشديدة، فهي النظير المُطْبَق للدال[(٤)]، وهذا ما ذهب إليه مِنْ بَعْدِهِ الدكتور/ أنيس ورأىٰ أن "الضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران

---

(١) في التطور اللغوي، ص ٢٠٨.

(٢) الأصوات اللغوية، ص ٩٠.

(٣) الأصوات اللغوية ، ص ٩٠-٩١.

(٤) في التطور اللغوي، ص ٢٠٨.

الصوتيان، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتًا انفجاريا هو الضاد كما ننطق بها في مصر"[١].

ويقول: "فالضاد الأصلية – كما وصفت في كتب القراءات – أقلُّ شِدَّةً مما ننطق به الآن"[٢].

هذا، إلىٰ أن الضاد كما وصفها القدماء كانت تتكون بمرور الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم، غير أن مجراه في الفم جانِبِيٌّ عن يسار الفم عند أكثر الرواة، وعن يمينه عند بعضهم، أو من كلا الجانبين كما يستفاد من كلام سيبويه[٣]، ويقول: "والذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتىٰ صارت إلىٰ ما نعهده لها من نطق في مصر، وأن هذا التطور كان قد تم في عهد ابن الجزري أي في القرن الثامن الهجري"[٤].

والضاد التي وصفها سيبويه التي قال عنها: "إنه ليس شيء من موضعها غيرها"[٥].

هي صوت فريد لا نكاد نجد له نظيرًا في اللغات السامية شقيقات اللغة العربية التي أشار إليها أحد المستشرقين"[٦].

---

(١) الأصوات اللغوية، ص ٤٨.

(٢) السابق، ص ٤٨.

(٣) انظر: الكتاب ٤/ ٤٣٣، والأصوات اللغوية ص ٤٩.

(٤) الأصوات اللغوية ص ٤٩.

(٥) الكتاب ٤/ ٤٣٦، والأصوات اللغوية ص ٤٩.

(٦) التطور النحوي للغة العربية ص ١٠.

وقد بحث الدكتور/ أنيس صوت الضاد مخرجًا وصفة بحثًا مستفيضًا ثم قال: "والضاد كما أتخيلها يمكن النطق بها بأن يبدأ المرءُ بالضاد الحديثة ثم ينتهي نطقه بالظاء، فهي إذن مرحلة وسطىٰ فيها شيء من شدة الضاد الحديثة وشيء من رخاوة الظاء العربية؛ ولذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة"(١).

ثالثًا – عد سيبويه من المجهورات (القاف والطاء)، وقد أدىٰ بهما التطور الصوتي الذي أصابهما خلال القرون إلىٰ أن فقدنا صفة الجهر فأصبحتا مهموستين(٢).

ويذكر الدكتور أنيس أن: "القاف كما ينطق بها الآن في مصر بين مُجِيدي القراءات صوت شديد مهموس، علىٰ الرغم من أن جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة"(٣).

ويقول عن الطاء: "الطاء كما نعرفها في مصر لا تفترق عن التاء في شيء غير أن الطاء أحد أصوات الإطباق، فالطاء كما ننطق بها الآن صوت شديد مهموس.. وقد أجمع الرواة في وصفهم للطاء القديمة علىٰ أنها صوت مجهور، مما يحملنا علىٰ الاعتقاد أن الطاء القديمة تخالف التي ننطق بها الآن، علىٰ أن وصف الطاء في كتب الأقدمين لا يُمَكِّنَ الباحثَ المدقق من تحديد كل صفات ذلك الصوت، ولا كيف كان يُنطق به علىٰ وجه الدقة، غير أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم أنها كانت صوتًا يشبه الضاد التي نعرفها الآن، وهنا يتضح معنىٰ قول ابن الجزري: إن المصريين

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٤٩.

(٢) انظر: في التطور اللغوي د/ شاهين ص ٢٠٨.

(٣) الأصوات اللغوية ص ٨٥.

ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة"[١]، ويَسْتَبْعِدُ أن يكون القدماء قد خلطوا في وصفهم بين الجهر والهمس في هذا الصوت[٢].

ويذكر ابن جني نقلاً عن سيبويه أنه: "لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سينًا، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنه ليس شيء من موضعها غيرُها"[٣].

فهما في هذا النص يتحدثان عن الأصوات المُطْبَقَة وما يمكن أن يكون لها من نظائر منفتحة، فالطاء عندهما صوت مطبق ونظيره غير المطبق هو الدال أي أن اللسان مع الطاء يكون مُقَعَّرًا، ولا يكون كذلك مع الدال، فكلاهما مجهور، ومخرجها واحد، ولا فرق بينهما إلا في شكل اللسان مع كل منهما، ولكن التجارب الحديثة تبرهن علىٰ أن الطاء كما ننطق بها الآن صوت مهموس وأن نظيرها غير المطبق هو التاء، كما تبرهن علىٰ أن الصوت المطبق الذي نظيرُهُ الدالُ هو الضاد كما ننطق بها الآن.

وهذا يبين ما للزمن من أثر في تطور الأصوات مخرجًا وصفة.

رابعًا: ذهب سيبويه إلىٰ أن صفة التوسط بين الشدة والرخاوة تقتصر علىٰ العين "تصل إلىٰ الترديد فيها لشبهها بالحاء"[٤]، وذهب ابن جني علىٰ خلاف سيبويه إلىٰ أن صفة التوسط لا تقتصر علىٰ العين بل تشمل أيضًا أصوات "اللام والنون والميم

---

(١) الأصوات اللغوية، ص ٦٢-٦٣.

(٢) السابق، ص ٦٣.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٦، وسر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٦١، تح/ حسن هنداوي، دارالقلم، دمشق، ط: الأولىٰ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

والراء"[١]، ويجمعها قولنا (لِنْ عُمَرْ) أو (لَمْ يَرْوِ عَنَّا)، ولعل السبب في عد هذه الأصوات من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة هو ضعف ما يُسمع لها من حفيف إذا ما قورنت بغيرها من نظائرها.

ثم كان حديث سيبويه عن صفات المجموعات وصفات الأصوات المفردة، فأدرك في بعض الأصوات صفات متشابهة تصنفها إلىٰ مجموعات بحسب هذه الصفات؛ وذلك مع اتصافها بالجهر أو الهمس، وبالشدة أو الرخاوة أو التوسط، ومن ذلك:

أولا – الإطباق. وصف سيبويه (الصاد والضاد والطاء والظاء) بالإطباق، وهو يعني أن اللسان عند إنتاج أحد هذه الأصوات ينطبق علىٰ الحنك الأعلىٰ في موضعين لا في موضع واحد، وعَدَّ سيبويه الإطباقَ صفَة قوة في الصوت تميزه من غيره من الأصوات المنفتحة.

ثانيًا – أدرك العلماء بعد سيبويه وجود مجموعة أخرىٰ تتصل بالمجموعة السابقة وهي (الخاء والغين والقاف)، وتشترك مع المجموعة السابقة في صفة التفخيم – أو بعبارة القدماء (الاستعلاء) – وضدُّهُ (الاستفال)، ومعناه الترقيق. ولا شك أن أشد أصوات هذه المجموعة تفخيمًا أو استعلاء هو الأصوات المطبقة، والاستعلاء كالإطباق صفة قوة في الصوت اللغوي"[٢].

---

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ٦١.

(٢) في التطور اللغوي ص ٢٠٩، والنشر لابن الجزري ١/ ٢٠٢، تصحيح / محمد علي الضباع، القاهرة، المكتبة التجارية، جزاءان، بدون تاريخ.

ثالثًا – وصف سيبويه مجموعة (الصاد والسين والزاي) بقوله: "وهن أندىٰ في السمع"[١] وهي تلك التي تمتاز بالصفير، ولعله يقصد بقوله: "أندىٰ" شدةَ وضوحهن في السمع، "فالصفير علىٰ هذا صفة قوة في الصوت تميزه عن غيره من الأصوات"[٢].

رابعًا – ثم ذكر مجموعة (الضاد والشين) وهما تمتازان بالاستطالة والتَّفَشِّي ومعنىٰ (الاستطالة) أن الصوت يشغل من طول اللسان مساحة تصل مخرجَه بمخرج صوت آخر يجاوره، ومعنىٰ (التفشي) أن يشغل الصوت من عرض اللسان مساحة يَنْتُجُ بها هذا الوشيش، فاستطالة الشين تصلها بمخرج الطاء واستطالة الضاد تصلها بمخرج اللام[٣]. وهذه الاستطالة تكسب الصوت ميزة علىٰ غيره من الأصوات.

بيد أن عامل الزمن كان له أثره في تخلي الضاد عن استطالتها، وكذلك أصاب الطاء تطور، فتطور الصوتان مما كان له أثره في تغير ذلك[٤].

خامسًا – هناك مجموعة(الميم والنون) وهما تمتازان بالغنة، ويقصد بها أن أحد هذين الصوتين إذا جاور صوتًا آخر يؤثر فيه بالإخفاء، فإنه يختفي ويترك مكانَه غنةً؛ أي: صوتًا أنفيًا يدل علىٰ وجوده[٥]. "وهذه الغنة – أو الأنفية بحسب التعبير الحديث – تعد من صفات القوة التي تميز هذين الصوتين عما سواهما من مقاربِهما"[٦].

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٦٤.

(٢) في التطور اللغوي ص ٢١٠.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٦٦، وانظر: في التطور اللغوي ص ٢١٠.

(٤) انظر: الأصوات اللغوية ص ٦٢-٦٣، وفي التطور اللغوي ص ٢١٠.

(٥) انظر: الأصوات اللغوية ٧٢-٧٤، وفي التطور اللغوي ص ٢١٠.

(٦) في التطور اللغوي ص ٢١٠.

سادسًا – مجموعة (الواو والياء). قال سيبويه عنها: "ومنها (اللَّيِّنة) وهي الواو والياء؛ لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما"[١]، فقد امتازت علىٰ غيرها من الأصوات بالمد واللين،

والمدُّ أو اللين صفة قوة فيهما تميزهما عن مقاربهما من الأصوات[٢].

فهذه صفات المجموعات التي بحثها سيبويه، وآراءُ المحدثين فيها، مما يدل علىٰ ذكاء سيبويه واجتهاده.

صفات الأصوات المفردة:

كما تحدث سيبويه عن صفات الأصوات المفردة فوقف مع ثلاثة حروف من الأبجدية هي: اللام والراء والألف[٣].

أما اللام فوصفها بالانحراف، قال: "ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرىٰ فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ولم يُعترض علىٰ الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام، وإن شئت مددت فيها الصوت، وليس كالرخوة؛ لأن طَرَف اللسان لا يتجافىٰ عن موضعه، وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مُسْتَدَقِّ اللسان فُوَيْقَ ذلك"[٤].

ويقصد بذلك أن الصوت يخرج من حافة اللسان حين تتصل بمجاورها من الأسنان والأضراس.

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٢) انظر في التطور اللغوي ص ٢١٠.

(٣) انظر: الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣٥، وانظر: سر صناعة الاعراب ١/ ٦٣.

ومنها المُكَرَّرُ: "وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلىٰ اللام فتتجافىٰ للصوت كالرخوة ولو لم يُكَرَّرْ لم يَجْرِ الصوتُ فيه، وهو الراء"(١).

"وذلك إذا وقفتَ عليه رأيتَ طَرَفَ اللسانِ يتعثر بما فيه من التكرير، ولذلك احتسب في الإمالة بحرفين"(٢).

وظاهر كلام سيبويه أنه صفة ذاتية في الراء أي أنه لابد أن يكون، ولكن القراء حذروا من إظهاره والمبالغة فيه(٣).

ومنها (الهاوي): وهو الألف كما وصفه سيبويه(٤)، ولعله يقصد بذلك أنه يخرج من الجوف، كما وصفه من جاء بعده (بالهوائية)، ويعني الانطلاق في كل أصوات اللين(٥). ولذلك قال ابن جني عن الألف والواو والياء: "إلا أن الألف أشد امتدادًا وأوسع مخرجًا، وهو الحرف الهاوي"(٦)، ويبقىٰ حديثه عن الحروف المُشْرَبَة، وهل مقصوده بها صفة الجهر؟ أم غيرُ ذلك(٧).

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٥، وانظر: سر صناعة الاعراب ١/ ٦٣.

(٢) سر صناعة الاعراب ١/ ٦٣.

(٣) انظر: في التطور اللغوي ص ٢١١، والنشر ١/ ٢٠٤.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٥) ينظر: العين ١/ ٦٤.

(٦) سر صناعة الاعراب ١/ ٦٢.

(٧) انظر هذا البحث وإشكالَه عند الدكتور/ عبدالصبور شاهين في كتابه (في التطور اللغوي) من ص ٢١٣-٢١٧.

مكانة سيبويه في علم الأصوات

لا شك أن أستاذية الخليل كان لها أثرها في عقلية سيبويه، وكان ما نتج عنه نماء وزيادة كالأرض المباركة يقع عليها المطر فتستحيل جناتٍ وورودًا، وكذلك الكلمة الطيبة ينتج عنها علم وفير، يقول الدكتور/ شاهين: "ولا ريب أن إدراك صفات الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط والإطباق والانفتاح والانحراف... إلخ كان اتجاها أصيلا لدىٰ سيبويه يميزه عن أستاذه الخليل الذي لا نجد في كتابه العين سوىٰ تحديدٍ لمخارج وترتيب الحروف عليها دون أن يذكر صفة من صفاتها التي جاءت في كتاب سيبويه"(١).

وقد تأثر ابن جني بعلم سيبويه واستفاد منه واقتبس من أفكاره، وإن كان زاد أشياء نظرًا لعامل الزمن وأثره، كالأصوات المتوسطة. إذ اقتصر سيبويه علىٰ العين، وزاد ابن جني "اللام والنون والميم والراء "، واقتبس عنوانَ الباب لمخارج الحروف وصفاتها من سيبويه، قال: "باب أسماء الحروف، وأجناسها، ومخارجها، ومدارجها، وفروعها المستحسنة، وفروعها المستقبحة، وذكر خلاف العلماء فيها مستقصىٰ مشروحًا"(٢).

ووقف مع حروف الأبجدية بالتفصيل وفَرَّقَ بين الصوت والحرف، وشبه الحلق والفم بآلات الموسيقىٰ، وتحدث عن صفات الحروف العامة والخاصة والمفردة، ثم تعرض لما يحدث للأصوات من زيادة وإبدال وغيرِ ذلك، وعرض مذاهب العلماء والأقوال المختلفة، وقسمها إلىٰ الخفيف والثقيل.

---

(١) في التطور اللغوي د/ شاهين ص ٢١٧.

(٢) سر صناعة الاعراب لابن جني ١/ ٤١.

وهو متأثر – إلىٰ حد بعيد – بسيبويه حتىٰ إنه ورد ذكره عنده في كتابه: سر الصناعة (١٢٣ مرة) ثلاثًا وعشرين ومائة مرة[١]، كما ورد اسم سيبويه في (الخصائص) (١٦٤ مرة) أربعًا وستين ومائة مرة[٢]، وهو في كل ذلك مع تجديده منطلق من علم سيبويه.

فالكتاب بحر زاخر يدل علىٰ علم واسع بالعربية وأبنيتها وقواعدها، وإذا كان ابن جني ذكره في (سر الصناعة) كثيرًا للانتفاع بعلمه في الأصوات، فإن رجوعه إليه في (الخصائص) كان لأبنية العربية وقواعدها قال ابن اسحق: "إذا تأملتَ الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة"[٣].

كما اشتمل الكتاب علىٰ مادة غزيرة من اللهجات العربية، بعضُها منسوب، وبعضها غير منسوب، وللباحثة صالحة راشد غنيم، رسالة ماجستير عن "اللهجات في الكتاب لسيبويه أصواتًا وبِنْيَة" تقع في سبعمائة صفحة تقريبًا[٤]، وقدم مدير مركز البحث العلمي بالجامعة لها وأثنىٰ علىٰ العمل وجهد الباحثة، وقال: "ولعل الباحثة الكريمة أن تخصص لدراسة التراكيب بحثًا آخر به يكتمل العمل ويستوىٰ علىٰ سوقه، ويعطي الثمرة المرجوة لدراسة اللهجات المختلفة الواردة في (كتاب سيبويه)

(١) انظر: إحصاء الكتور / حسن هنداوي / فهارس الكتاب ٢/ ٩٢٠.

(٢) انظر: احصاء الشيخ / محمد علي النجار، فهارس الخصائص ٣/ ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) الكتاب ١/ ٧.

(٤) جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة، نوقشت في ١٠/ ٥/ ١٤٠٣، وطبعت الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، بمركز البحث العلمي وإحياء التراث.

الذي يعتبر أقدم نص تام النضج يصل إلينا في الدراسات النحوية، وما فتئ العلماء منذ تأليف (الكتاب) ينهلون من معينه ويردون إليه ومنه يَصْدُرُون"[١].

بل وجدنا عبقري اللغة ابن جني يأخذ سطرًا من كلام الخليل وسطرًا آخر من كلام تلميذه سيبويه فيقيم عليهما بابًا كاملاً في (فقه اللغة)، فانظر كيف نبتت الفكرة في الذهن؟ وما الذي دعا إليها؟ وكيف دعت ابن جني أن يقول: "ووجدت أنا - ويسوق النظير - كما في (باب إمساس الألفاظِ أشباهَ المعاني) يقول ابن جني: "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته.

قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالةً ومَدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صَرْصَرَ.

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت علىٰ الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النَّقَزَان والغلبان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالِيَ حركات الأفعال"[٢].

ودعاه هذا إلىٰ البحث، ووجد أشياءَ علىٰ سَمْتِ ما حَدَّاهُ ومِنْهَاجِ ما مَثَّلاهُ[٣].

كما استفاد ابن الجَزَرِي بعلم سيبويه في القراءات. فباب الإدغام عند سيبويه امتد أثره من القرن الثاني حتىٰ القرن الثامن وبعد القرن الثامن في كتب الاحتجاج للقراءات

---

(١) تقديم اللهجات في الكتاب لسيبويه ص ٦، وما ذكره الدكتور / خالد عبدالكريم جمعة في رسالته في الفصل الثالث / الشعر واللهجات. فيه بيان الأثر واللهجات في التراكيب. انظر: رسالة الشعر في كتاب سيبويه ص ٣٩٠-٤٨٤.

(٢) الخصائص ٢/ ١٥٤.

(٣) السابق ٢/ ١٥٣.

وكتب توجيه القراءات حتىٰ البنا الدمياطي في (اتحاف فضلاء البشر) وما ذكره في الإدغام واستشهد له بكلام العرب والقراءات القرآنية[١]، يحتاج إلىٰ مجلدٍ وَحْدَه.

ومن ذلك: "وأما قول بعضهم في القراءة (إن الله نعما يعظكم به) (النساء: ٥٨)، فحرك العين فليس علىٰ لغة من قال نِعْمَ فأسكن العين ولكن علىٰ لغة من قال نِعِمَ فحرك العين، وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هذيل، وكسروا كما قالوا لِعِب، وقال طَرَفَةُ:

ما أَقَلَّت قدمُ نَاعِلَهَا ... نَعِمَ السَّاعُون في الحي الشُّطُر[٢]

وأما قوله عز وجل: (فلا تتناجوا) -المجادلة - فإن شئتَ أسكنتَ الأول للمد وإن شئت أخفيت وكان بزنته متحركًا، وزعموا أن أهل مكة لا يُبَيِّنُون التاءين[٣]، وما ذكره في "باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد "استعرض لهجات العرب في هذه الحروف المتقاربة وما فيه إدغام، وما لا يجوز إدغامه، وما يحسن فيه وما لايحسن، ثم عرض للقراءات؛ قال: "وقرأ أبو عمرو (هَثُّوِّبَ الكفارُ) - ٣٦ سورة المطففين - يريد هل ثوب الكفار، فَأَدْغَمَ في الثاء، وأما التاء فهي علىٰ ما ذكرت لك، وكذلك أخواتها، وقد قرئ بها (بتؤثرون الحياة الدنيا) ١٦/ الأعلىٰ، فأدغم اللام في التاء"[٤]، فأورد القراءة واستشهد لها من قول العرب، وبهذا أخذَ مَنْ جاء بعده كما عند ابن يَعِيشَ والبَنَّا الدِّمْياطي، وهذا يحتاج إلىٰ بحثٍ وَحْدَهُ[٥].

---

(١) انظر: فهرس شواهد القرآن الكريم في تحقيق هارون ٥/ من ص ٧إلىٰ ٣١.

(٢) الشاهد فيه كسر عين (نعم) لغة في نعم، أقلت: حملت أي ما أقلتني قدماي أي طول الحياة، والشطر: بضمتين: جمع شطير وهو الغريب البعيد.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٤٠.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٤٥، ٤٥٩، وقد خرج المحقق القراءتين من مراجعهما.

(٥) هذا وقد عثرت علىٰ كتاب "سيبويه والقراءات للدكتور/ أحمد مكي الأنصاري / القاهرة / بدون تاريخ.

خاتمة

الحمد لله أولاً وآخرًا، ونسأل الله العفو عما بدر من نقص وتقصير، وبعد رحلة البحث التي امتدت للوقوف علىٰ بيان تأثير الخليل بن أحمد في سيبويه و(الكتاب) كانت النتائج الآتية:

أولاً – تعددت الروافد العلمية التي كونت سيبويه، فجمع في كتابه ما تفرق من أقوال مَنْ تقدمه من العلماء في النحو والصرف مع بروز شخصيته في (الكتاب).

ثانيًا – كان الخليل من أكبر شيوخه وأبعدهم أثرًا في نفسه، ولذلك أكثر من النقل عنه في (الكتاب)، وورد صريحًا وتكرر قولُه: "وسألت الخليل" "وقال لي الخليل"، وذلك مستفيض في (الكتاب) وبلغت النقول عنه (٥٢٢) مرة.

ثالثًا – كان للخليل العبقري المبتكر أثرٌ في ثقافة سيبويه وعَرْضِها علىٰ هذا النحو الذي لم يسبق له مثيل في كتاب سابق.

رابعًا – لم يغب عن سيبويه الجانبُ الأدائي، وملاحظته لاسيما وهو يقرر في بداية حديثه عن الأصوات وعددها أنها لا تُتَبَيَّنُ إلا بالمشافهة، ويظهر تفرده في تخصيص (باب الإدغام) لدراسة الأصوات؛ إذ دراسة النحو والصرف في حاجة إلىٰ علم الأصوات لكي يتسلح به النحوي وتكتمل لديه عدة الباحث لتصنيف الجُمَل والتمييز بين نوع وآخر في تركيب الكلام.

خامسًا – أثنىٰ علماء الأصوات المُحْدَثُون علىٰ ما أسهم به سيبويه في الدراسة الصوتية وما ذهب إليه في صفات الأصوات وإدراكها وأن ما أنجزه في هذا الشأن ميزه عن أستاذه الخليل الذي لا نجد في كتابه العين سوىٰ تحديد المخارج وترتيب الحروف عليها دون أن يذكر صفة من صفاتها التي جاءت في كتاب سيبويه.

سادسًا – تأثرَ مَنْ جاء بعد سيبويه بإنجازه في علم الأصوات كما في (الكتاب) حتىٰ كان ابنُ جني الذي ذكره في سر صناعة الإعراب (١٢٣) مرة وفي الخصائص (١٦٤) مرة.

سابعًا – اشتمل الكتب علىٰ مادة غزيرة من اللهجات العربية مما لفت الأنظار الىٰ دراستها في (الكتاب) كما كانت بعض عباراته الموجزة التي لا تزيد عن سطر واحد فتحًا لابن جني لكي يقيم عليها بابًا سماه (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، كما كان له أثر في علم القراءات والتجويد مما جعله مصدرًا لابن الجزري وغيره، واشتمل علىٰ مقاييس لأحكام فتحت الباب لعلم (أصول النحو)، ومعلوم أن (أصول النحو) و(أصول الفقه) يجريان من واد واحد، وذلك يفسر قول الْجَرْمِي: (المتوفىٰ سنة ٢٢٥هـ) "أنا منذ ثلاثين سنة أفتىٰ الناس في الفقه من كتاب سيبويه".

ثامنًا – اقتبس منه عبد القاهر الجرجاني مسائل في علم المعاني إذ هي وثيقة الصلة بالنحو.

تاسعًا – حظي الكتاب بمكانة كبيرة عند علماء العربية قديمًا وحديثًا حتىٰ قال السيرافي عنه:" لم يسبقه إلىٰ مثله أحد ولم يَلْحَقْ به مَنْ بعده، "وكان له أثره عند المستشرقين فأعجبوا به وكتب شاده الألماني رسالته عن "علم الأصوات عند سيبويه وعندنا" وقد ذكر الدكتور/ رمضان عبدالتواب عددًا منهم في كتاب له مذكورٍ في البحث.

عاشرًا – يرىٰ الاستاذ علىٰ النجدي ناصف أن كتاب سيبويه ليس أعظم مراجع النحو والصرف عامة وكفىٰ، ولكنه مع ذلك أصل من أصول الثقافة الاسلامية في غير ناحية من نواحيها المتعددة.

حادي عشر – الإيمان بعبقرية اللغة العربية ليس من باب التعصب، مع الاعتراف بأن أصحاب كل لغة بلغتهم مشغوفون ولها مُؤْثِرُون، فقد أَثَّر الخليل في تلميذه سيبويه وكتابه، وهذا يدل علىٰ عراقة هذه اللغة؛ لأن من دَرَي العربيةَ وأتقن غيرها عرف فضل هذه اللغة الشريفة، واستبانت له وجوه دقتها وبراعتها، وبهذا استدل ابن جني علىٰ أن العربية تَفْضُلُ لغاتِ العَجَم.

فهرس المصادر والمراجع

١- **أخبار النحويين البصريين للسيرافي**، تح/ د محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط١/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢- **الأصوات اللغوية** د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤/ ١٩٧١م.

٣- **الاقتراح في علم أصول النحو** للسيوطي، مطبعة السعادة، ط١/ ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٤- **إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي**، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب العلمية ١٣٦٩هـ.

٥- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** للسيوطي، تح/ محمد أبو الفضل، القاهرة ١٩٦٤م.

٦- **تاريخ الأدب العربي** لكارل بركلمان نقلع إلىٰ العربية/ تح د. عبد الحليم النجار/ ط٥/ دار المعارف.

٧- **تاريخ بغداد** للخطيب البغدادي/ تح. مصطفىٰ عبد القادر/ دار الكتب العلمية – بيروت.

٨- **تاريخ التراث العربي** لفؤاد سزكين نقله إلىٰ العربية د محمود فهمي حجازي/ ط السعودية/ جامعة محمد بن سعود الإسلامية (١٤١١ه – ١٩٩١م).

٩- **تهذيب التهذيب** لابن حجر العسقلاني، دار الفكر العربي، مصر.

١٠- **تهذيب اللغة** لأبي منصور الأزهري/ تح. محمد عوض مرعب/ دار إحياء التراث العربي بيروت ط١/ ٢٠٠١م.

١١- **الخصائص** لابن جني/ تح. الأستاذ محمد علي النجار ط لبنان – بيروت.

١٢- **دراسات في علم اللغة** د/ كمال محمد بشر، ط ٩/ سنة ١٩٨٦، دار المعارف، مصر.

١٣- **دراسات وتعليقات في اللغة** د/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/ ١٤١٤هـ.

١٤- **دلائل الإعجاز** للإمام عبد القاهر للجرجاني، تح / أحمد المراغي، طبعة قديمة، بمصر ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

١٥- **سر صناعة الإعراب** لابن جني، تح/ حسن هنداوي، دارالقلم، دمشق، ط١/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٦- **سيبويه إمام النحاة**، نشر عالم الكتب بمصر سنة ١٩٧٩م.

١٧- **سير أعلام النبلاء** للذهبي، تح. محمد عبادي، مكتبة الصفا، مصر١٤٢٤هـ.

١٨- **شواهد الشعر في كتاب سيبويه** للدكتور/ خالد عبدالكريم جمعه، رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٠م، ط/ الكويت، ط١/ ١٤٠٠هـ.

١٩- **طبقات النحويين واللغويين** للزبيدي، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الثانية.

٢٠- **علم لغة النص** د/ سعيد بحيرى، لونجمان، القاهرة ١٩٩٩٧م.

٢١- **غاية النهاية في طبقات القراء** لابن الجزري، نشره ج برجستراسر، طبعة السعادة سنة ١٣٥١هـ.

٢٢- **الفهرست** لابن النديم، تح.: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط٢/ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٢٣- **في التطور اللغوي** د/ عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط ٢/ ١٤٠٥هـ.

٢٤- **كتاب العين** للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح. د/ عبدالله درويش، بغداد ١٣٨٦هـ- ١٩٦٧م.

٢٥- **كتاب سيبويه**، تح: عبد السلام هارون، المطبعة المصرية للكتاب، ط ٣/ ١٩٨٨م.

٢٦- **اللباب في تهذيب الأنساب** لابن الأثير ط القاهرة ١٣٥٧ه.

٢٧- **اللهجات في الكتاب لسيبويه** رسالة ماجستير للباحثة صالحة راشد غنيم ط١/ ١٤٠٥ ه ـ ١٩٨٥ مركز البحث العلمي وإحياء التراث جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٢٨- **المختار من كتاب علم الصوتيات** للدكتور/ عبدالله ربيع ص ٣١، طبعة كلية اللغة العربية بدمنهور سنة ١٤٠٦هـ.

٢٩- **مراتب النحويين** لأبي الطيب، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ نهضة مصر ١٩٥٥م.

٣٠- **مصطلحات صوتية غامضة**. د/ علي سيد جعفر، من منشورات مجمع اللغة العربية بمكة - المكرمة على الشبكة العالمية، سنة ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م.

٣١- **المعارف** لابن قتيبة، تح. د ثروت عكاشة، ط٤/ دار المعارف.

٣٢- **معجم الأدباء لياقوت** الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٣- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** لابن الأنباري أبي البركات/ تح. محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ١٤١٨ه ت ١٩٩٨م.

٣٤- **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة** للشيخ محمد الطنطاوي، دار المعارف، مصر، ط٥/ سنة ١٩٧٣م.

٣٥- **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري، تصحيح/ محمد علي الضباع، القاهرة، المكتبة التجارية، بدون تاريخ.

٣٦- **النص والخطاب والإجراء** لمؤلفه روبرت دي بو جرانده/ ترجمة د/ تمام حسان، عالم الكتب، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.